عبدالله بن عبدالرحمن الربيعي

أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي خلال الحروب الصليبية

الرياض
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

أثر
الشرق الإسلامي في الفكر الأوربي
خلال
الحروب الصليبية

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ ـــ ١٩٩٤م

ص.ب 3169 الرياض 11471

هذا الكتاب أصله رسالة ماجستير

نال الباحث بموجبها درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي بتقدير «ممتاز» من قسم التاريخ والحضارة في كلية العلوم الاجتماعية – جامعة الإمام – بالرياض

وذلك في شهر ربيع الأول من عام 1405هـ

تقـــــديم

أحمد الله ربي، وأصلي على محمد نبيي ، وعلى آله الطاهرين، وصحابته الأبرار، والتابعين إلى يوم الدين، وبعد:

ماذا عساي أن أقول، وأنا أقدم عملاً من ذاتي؟ هل أكتب بنرجسية، أمجد الشخصية، أم أتخيل أنني بهذا الكتاب أتيت بما لم تستطعه الأوائل؟، تعودت أن أكتب مقدمات لغيري، ولكن أن أقدم نفسي بنفسي فهذا أمر يحول بيني وبينه الحياء. رسالة ماجستير نوقشت، وحصلت بموجبها على درجة، ثم أودعت مع غيرها من الرسائل السابقة واللاحقة في أرفف التحنيط، فأحسست بعقدة الذنب، وأنا أرى وأد رسالة حيّة، أمدتني بفائدة، فأردت أن أنفض عنها غبار النسيان، وأزفها إلى القارئ المستفيد، في ثوبها الجديد، عَلَّهُ يجد فيها ضالته.

البحث له ثلاثة أركان: الموضوع والباحث والمشرف، أما الموضوع فهو عن الصليبيين، وهم قضية شغلت بالي منذ أن كنت في السنة الثالثة من سني الكلية، حيث كتبت بحثاً عن « بواعث الحروب الصليبية »، لذلك أصررت على تسجيل هذه الرسالة رغم تحفظات مالبثتْ أن زالت بعد عرض المشروع، ولاشك أن وراء ذلك تشجيعاً علمياً أمدني به دائماً أستاذي الدكتور/ عبد الله

ابن يوسف الشّبل، وكيل الجامعة، هذا الرجل ذو الطّراز الفريد، الذي بقي على صلة وثيقة بالبحث رغم مسؤولياته الجسام، حجةً في التاريخ، وعالماً في الحديث، ومحيطاً بالثقافة. أما المشرف فهو الأستاذ الدكتور/ علي الغمراوي رحمه الله، الذي كان أستاذ العصور الوسطى في عين شمس والكويت وجامعة الإمام، خريج ألمانيا، يتقن الألمانية والإيطالية والفرنسية والإنجليزية، كان مخلصاً، متميزاً، لايجامل على حساب الحقيقة العلمية، له أسلوب وحيد في الإشراف فهو لايتعامل مع الورق ويشترط على الباحث أن يأتي إليه في بيته ويقرأ عليه ماكتبه، مما أرهقه وأرهق طلابه، ولكن لابديل عن ذلك. كان - رحمه الله - قاسياً ولكن بنية الخير، ولمصلحة العمل، كريماً لايمن بكتاب، ولايضن بترجمة. اختلفت معه كثيراً لأن حكمة الشيوخ لم أبلغها بعد، أتذكر ذلك وأنا أعاني الآن مثلما عانى، فأترحم عليه. كم كان محباً لهذا الوطن، قضى فيه اثني عشر عاماً في الرياض والأحساء وأبها والمدينة. كان لايميل إلى الإسهاب والإطناب، بل يحبذ الإيجاز غير المخل، لذا استبعد كثيراً من المادة العلمية، لأنه يرى أن لا داعي لها، أو أنها تحصيل حاصل، أو حشوٌ. هذه التواقيع كان - رحمه الله - يرسمها بالأحمر على أوراقي، حتى إذا ما اكتملت الرسالة، ألزمني بتقليد علميّ معقد، من طباعة الرسالة إلى إخراجها ثم تسليمها يداً بيد إلى لجنة المناقشة المكونة من: الأستاذ الدكتور/ علي حسني الخربوطلي، والدكتور/ محمود

الحويري. فلا يجوز - في عرف الغمراوي - إرسال نسخ المناقشين في البريد. بل إنه اشترك معهما في إبداء ملحوظاته حول البحث والباحث.

وبعد المناقشة أشار عليّ عدد من الأساتذة بطباعة الرسالة، وتهيأت لذلك، لولا سفري إلى فرنسا لتحضير الدكتوراه (من 26 مارس 1985 إلى 2 أكتوبر 1989)، فتوقف المشروع إلى حين عودتي، وفي العام الماضي زار الرياض الأستاذ/ محمود الأرناؤوط مدير مكتب ابن عساكر لتحقيق وتصحيح كتب التراث بدمشق، فطلبت منه أن يشرف على طباعتها في بيروت فقام بذلك مشكوراً، وحين أرسل لي « التجربة الأولى » ارتأيت أن أزيد وأنقص، وأضيف، وأحذف، بغية استدراك مايجب إثباته أو نفيه، وبخاصة أن وجودي في فرنسا مكّنني من الاطلاع الواسع على أمور كثيرة كنت أجهلها عن الصليبيين، ولا أدعي بأنني مقتنع تماماً بما قمت به من تصحيح؛ ذلك لأن الوقت لم يكن في صالحي، ولعلي أجد - فيما بعد - فرصة لإعادة طباعة هذا الكتاب مع ترجمة وطباعة رسالة الدكتوراه التي أعددتها في جامعة السوربون، لكي أساهم في تزويد المتخصصين في هذا العصر بما أعتقده مهماً لديهم.

ولا أقول إلا كما قال العماد الأصفهاني « إني رأيت أنه لايكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان

أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قُدّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

ويسرني في هذا التقديم أن أشكر مسؤولي جامعة الإمام، منذ تأسيسها حتى الآن، وعمداء كلية العلوم الاجتماعية منذ تكوينها إلى اليوم، وأعضاء هيئة التدريس في قسم التاريخ والحضارة، على ماقدموا لي شخصياً، وقدموا لغيري من الباحثين من عون وتوجيه وإرشاد، كما أثني على لجنة المناقشة، وهم أساتذة استفدت من ملحوظاتهم، أشكر الأحياء، وأترحم على الأموات سائلاً الله أن يتغمدهم برحمته الواسعة. وأدعو الله أن يسكن أستاذي المشرف جنّته، ويجزيه عنا خير الجزاء.

د. عبد الله بن عبد الرحمن الربيعي

الرياض / الروابي في 4/4/1414هـ

* * *

المقدمة

الحمد لله الذي عَلَّم الإنسان مالم يعلم. والصَّلاة والسَّلام على رسول الله هادي البشرية وناصح الأُمَّة، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

لقد كنت أميل دائماً إلى البحوث الحضارية لأن الحضارة سجلٌ حافلٌ بعطاء الإنسان عبر الأزمان، سواءً كان هذا العطاء ماديّاً أو فكرياً. فالحضارة قضية تهم كل إنسان في كل مكان. والدراسة الحضارية متعةٌ ثقافيةٌ تضيف إلى رصيد الباحث معلومات جديدة، وتثري المكتبات العامة بمناهل علمية يرد عليها طلاب العلم. والبحث الحضاري محاولة جادةٌ لإعادة الحلقات المفقودة إلى سلسلة الدراسات الحضارية، ورصد دقيق لقنوات التأثر الحضاري بين الشرق والغرب، والقديم والحديث. فالتواصل مستمر إلى الأبد.

والحضارات الحديثة ماهي إلاّ نتيجة لتفاعل الحضارات القديمة. والذي أودُّ أن أؤكده هنا أن الحضارة ليست علماً محصوراً في مصطلح بل هي تعني ماتوصل إليه الإنسان من إبداع أو اختراع في الآداب والعلوم، فهي أمر يهمّ الطَّبيب الذي يُريد أن يعرف بدايات الطب بوساطة التراث الطّبي، وكذلك يهمّ

المهندس وعالم الرياضيات لأن التراث العلمي محتو على ماتوصل إليه المسلمون من أفكار وابتكار.

وقبل اختياري لهذا الموضوع قرأت في المصادر والمراجع التي تتحدث عن فترة العصور الوسطى. هذه الفترة التي شهدت علاقات مختلفة بين الشرق والغرب، ورأيت أن الحروب الصليبية حدثٌ كبير استحوذ على اهتمام المؤرِّخين الغربيين والشرقيِّين، فقد اختلفت هذه الحروب عن غيرها من الحروب بطول أمدها، وتعدد عناصرها، وتناقض أهدافها، وتنوع لغات الضالعين فيها، ومكَّنت الصليبيين من البقاء في الشرق مدة طويلة، وقد أسفر الوجود الصَّليبي عن قيام قنوات حضارية حملت الأثر الشرقي إلى أوروبا سواء كان هذا الأثر مادياً أو فكرياً.

وقد اقتصرت على الأثر الفكري فقط لأن الأثر المادي المتمثل في الفنون المعمارية، والفنون العسكرية، قد كُتب حوله الكثير، ولم يكن مثا ر اختلاف بين المؤرِّخين أما الأثر الفكري فقد اختلفت حوله الآراء فمن المؤرِّخين من أنكره جملةً وتفصيلاً، ومنهم من قلّل من شأنه. وقليل أكّدوه وعظّموا من قدره. لذلك رغبت في أن أكتب عن هذا الجانب لعلي أن أخرج بنتائج طيبة. فقمت بالاطلاع على مصادر ومراجع ساعدتني على تكوين فكرة عامة مكنتني من إعداد خطة أوَّلية حظيت بتأييد المتخصصين.

لقد اعتمدت في كتابة هذه الرسالة على مصادر إسلامية ألّفها معاصرون للحقبة الصليبية مثل أُسامة بن منقذ الذي كان شاهد عيان لكثير من الأحداث بين الصليبيين والمسلمين، ومنهم من رافق قادةالمسلمين في قتالهم ضد العدو الصليبي مثل ابن شدّاد. واستفدت من كتب الرّحالة، كابن جُبَير الذي قدم إلى الشام في أواخر القرن السادس الهجري وتحدث في رحلته عن علاقة الصليبيين بالمسلمين.

أما المصادر الإفرنجية فلم أجد مترجماً منها غير كتاب «أعمال الفرنجة وحجّاج بيت المقدس» لمؤلف مجهول صَحبَ الحملة الصليبية الأولى، وكتاب «(القديس) لويس التاسع في حملته على مصر والشام» لجان دي جوانفيل الذي رافق الملك لويس التاسع في حملته على مصر، ورحلة بنيامين التطيلي الذي زار الشام في القرن السادس الهجري. أما كتاب «تاريخ الأعمال التي تمّتْ في أقاليم ما وراء البحر» لوليم الصوري فلم أجد مترجماً منه سوى مقدمته التي ترجمها عمر كمال توفيق في مقالة له بعنوان «المؤرخ وليم الصوري» في مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية[*].

(*) قام الأستاذ الدكتور حسن حبشي بإصدار جزءين من هذا الكتاب تحت عنوان: «الحروب الصليبية» تأليف وليم الصوري. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1991م.

أما المراجع العربية فقد اطلعت على عدد منها وبخاصة تلك التي ألّفها علماء متخصصون في تاريخ العصور الوسطى بعامّة والحروب الصليبية بخاصّة أمثال سعيد عبد الفتاح عاشور، وجمال الدِّين الشَّيَّال، وجوزيف نسيم يوسف. وقد وجدت في هذه المراجع مادةً علمية ساعدتني في كتابة الرسالة وتعرفت من خلالها على مصادر رجع إليها هؤلاء المؤلِّفون.

وكان من حُسْن حظي أن أجد كثيراً من الكتب المترجمة إلى العربية التي تتصل بموضوعي وهي كتب إنجليزية وفرنسية وألمانية مكَّنتني من الاطلاع على وجهات النظر المنصفة وغير المنصفة، الأمر الذي مكَّنني بالإضافة إلى المصادر الإسلامية أن أضفي على بحثي هذا لمسات من الموضوعية. ولم يكن بوسعي الرجوع إلى المراجع الأجنبية في لغاتها الأصلية إلاّ في القليل، وهي في رسالتي أربعة كتب رجعت إليها بمساعدة أستاذي المشرف: «معجم الكلمات الأسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية» الذي ألّفه بالفرنسية دوزي وانجلمان في طبعته الثانية المنقحة والمزيدة التي نشرتها مكتبة لبنان في بيروت سنة 1947م.

« ودائرة المعارف البريطانية» في طبعتها الحديثة التي ظهرت في سنة 1983م. والكتاب الذي ألّفه غوستاف جروبر باللغة الألمانية بعنوان « نظرة عامة على الأدب اللاتيني منذ منتصف القرن السادس وإلى منتصف القرن الرابع عشر»، المنشور في

ميونيخ في دار نشر فيلهلم فينك، والمستخرج من مجمل الفيلولوجيا الرومانسية، الجزء الأول من المجلد الثاني الصادر في شتراسبورج سنة 1902م، وموجز تاريخ كمبريدج للعصور الوسطى الذي صدر في مجلدين من مطبعة جامعة كمبريدج سنة 1966م.

وفضلاً عن ذلك فهناك محاضرات أفادتني بمعلومات قيِّمة، كالمحاضرة التي ألقاها قاسم السامرائي بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في عام 1402هـ، بعنوان «أصول الماسونية التاريخية وموقفها من الإسلام». والمحاضرة التي ألقاها الدكتور علي الغَمْرَاوي في الكلية نفسها عام 1403هـ بعنوان «أثر الثقافة الإسلامية في الفكر الأوروبي».

واستفدت أيضاً من الرسالة المقدمة من قبل محمود محمد علي الحويري إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة عام 1978م، التي نال بها درجة الدكتوراة وموضوعها «الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر».

وبعد أن توافرت لدي المعلومات التي رأيت أنها كافية لتغطية موضوعي توكلت على الله وقسمته إلى أربعة فصول:

الفصل الأول، وعنوانه الحروب الصليبية في الشرق الإسلامي. تحدثت فيه عن الأسباب التي دفعت الصليبيين إلى القيام بهذه الحروب. وناقشت الآراء حول دواعيها. لأن دراسة هذه الأسباب تصور الظروف التي أدت إلى مجيء الصليبيين إلى الشرق مما يوضح الملابسات التي أحاطت بذلك، ومن خلال هذه الدراسة نتعرف ضمناً على عقلية الصليبيين، فالجيوش الصليبية لم تكن جنوداً فحسب بل كان فيها رجال الكنيسة الذين يتطلعون إلى الهيمنة على الكنائس الشرقية وتوسيع رقعة الإقطاع الكَنَسي. وكان فيها الأمراء والنُّبلاء الّذين يطمحون إلى إمارات في الشرق، تشبع طموحهم. وهناك الفلاّحون والفقراء وطلاب الحرية. وهؤلاء جميعاً بقوا في الشرق مدة طويلة وتأثروا بحضارة الشرق كل حسب مستواه العلمي والاجتماعي.

وفي هذا الفصل ناقشت أيضاً الآراء التي أُثيرت حول دور الشرق في نقل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا. ثم استعرضت أمثلة تؤكد أهمية الشرق الإسلامي كمعبر حضاري.

الفصل الثاني، وعنوانه الأثر اللغوي والأدبي، وفيه ألقيت بعض الأضواء على علاقة الصليبيين بالمسلمين، وعن طريق هذه العلاقة تسربت الكلمات العربية إلى اللغات الأوربية، بوساطة الصليبيين الذين تعلّموا اللغة العربية الفصحى والدارجة. وضربت أمثلة من هذه الكلمات.

وفي الأثر الأدبي تناولت الشعر الأوروبي، وتأثره بالشعر العربي وبخاصة في فنِّ الهجاء، وفنِّ الغزل. وتحدثت عن التروبادور والجولياردين، وحاولت أن أبين الآثار الشرقية عليهم. أما القصة الأوروبية فقد أوضحت أثر الشرق فيها قدر الإمكان. وفي الجزء الأخير من هذا الفصل تكلَّمت عن المؤرِّخين الفرَنجة والإنجليز والألمان والإيطاليين الّذين رافقوا الحملات الصَليبية. وكذلك المؤرخين الصليبيين كوليم الصوري، ووليم الطرابلسي، وتعرضت لأثر الشرق على المؤرخين الأوروبيين. ولتوضيح ذلك استعرضت كتاب المؤلف المجهول الذي صحب الحملة الأولى، وكتاب وليم الصوري الذي ولد وعاش في الشرق.

الفصل الثالث، وعنوانه: الأثر العلمي والطبي. وقد حاولت قدر الإمكان أن أتوصل إلى أمثلة من الأثر العلمي للشرق الإسلامي سواءً عن طريق الصليبيين العائدين إلى أوروبا، أو بوساطة صِقِلّيَة أيام فريد ريك الثاني.

ولما كان الأثر في مجال العلم قليلاً إذا ماقيس بالآثار الأخرى فلم أتمكن من الإطالة فيه لقلّة ماتوافر لدي من معلومات أما الأثر في مجال الطبِّ فهو أمر له أهميته ولذلك أطلت الحديث عن المستوى الطبي لدى المسلمين بما في ذلك المشافي والأطباء وطرق

العلاج ثم قارنته بالمستوى الطبي عند الصليبيين. وتحدثت عن انتقال الأثر الطِّبي إلى أوروبا عبر الأطباء الّذين رافقوا الحملات الصّليبية أو عن طريق طُلاَّب الطبِّ الذين قدموا إلى الشرق لتلقي العلم على أيدي المسلمين. هذا الأثر الذي تمثل في ظهور المشافي في أوروبا، وأدى إلى تطور الطب فيها، وفي آخر الفصل استعرضت أحد الكتب العربية المترجمة إلى اللاتينية وهو كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن عباس المجوسي. لأن لهذا الكتاب أثره الكبير في أوروبا.

الفصل الرابع، وعنوانه الأثر العقدي. وفي هذا الفصل تحدثت عن موقف الصّليبيين من الإسلام والمسلمين، هذا الموقف الذي لم يلبث أن تغيَّر بمرور الزمن. وتطرقت إلى موضوع مؤثّرات الشرق على عقيدة الصّليبيين سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية. ثم تكلّمت عن المذاهب الجديدة التي ظهرت في أوروبا في عصر الحروب الصليبية وموقف الكنيسة منها، هذا الموقف الذي جعل البابوية تفكّر في أسلوب جديد غير الحرب، وهو إرسال الوعّاظ إلى الجماعات الأوروبية الخارجة على الكنيسة، وبعث المُنَصِّرين لتحويل المسلمين إلى النصرانية.

لقد كانت السّمة الغالبة في كتابتي الإيجاز، فقد كنت أختار العبارات المختصرة التي تدلُّ على معان كثيرة لأن القارئ بالإشارة

يفهم. ولأن الحشو من عيوب الكتابة، وبخاصة إذا كان لايمتُّ إلى الموضوع بصلة، واتخذت من المعلومات التي استقيتها من المصادر والمراجع منطلقاً لإلقاء المزيد من الأضواء، وأبديت بعض الآراء المتواضعة. ولما كان المتن باللغة العربية، فإنني تحاشيت فيه إدخال المفردات والعبارات المكتوبة بالحروف اللاّتينية وفضّلتُ أن أوردها في الحواشي.

أما التاريخ بالسنين فقد أوردت السنة الميلادية رقماً. أما السنة الهجرية فقد اتبعت طريقة السلف إذ بدأت بالرقم الصغير ثم الكبير كتابة، وعمدت إلى حصر نقاط كل فصل في ورقة تسبق الفصل. وحاولت أن أعرّف الأعلام الواردة قدر الإمكان مستعيناً بمعجم ياقوت الحموي، وكتاب الأعلام للزركلي، ودائرة المعارف الإسلامية والبريطانية. وقد حرصت قدر استطاعتي أن ألتزم بالموضوعية في بحثي، وأرجو أن أكون قد وفقت في محاولتي هذه.

وفي الختام لا يسعني إلاّ أن أشكر أستاذي المشرف الدكتور علي الغمراوي على ما بذله من جهد وما أبداه من إرشادات وتعليمات كان لها أثر على جمع المادة وصياغة الرسالة.

كما أقدّم شكري الجزيل لأعضاء اللجنة التي تولت مناقشة هذه الأطروحة على ملاحظاتهم القيمة المفيدة التي أغنت البحث وشدّت من أزر صاحبه.

ويسرني أن أشكر كل من أعانني على إتمام هذه الرسالة وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

الباحث

عبد الله بن عبد الرحمن الرَّبيعي

الرياض / الروابي

1405 / 5 / 5

الفصل الأول

الحروب الصّليبية في الشرق الإسلامي

نقاط الفصل

أهمية الحروب الصّليبية ـ البابا أوربان ـ بطرس الناسك ـ رحلات الحج ـ رأي ابن الأثير ـ الكسيوس كومنين ـ الوضع الاقتصادي في أوروبا ـ الحروب مرحلة من مراحل الهجرة ـ أوضاع الفلاح ـ البحث عن الحرية ـ دور المدن الإيطالية ـ الشرق الإسلامي معبر حضاري ـ آراء المؤرّخين ـ أمثلة للعلاقات السّلمية بين الصّليبيين والمسلمين ـ فوشيه دي شارتر .

شهد الشرق الإسلامي في نهاية القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حملات جاءت من الغرب الأوروبي، وقد اشتهرت دون سواها من الحملات التي شنّها البيزنطيون والأوروبيون الغربيون على المسلمين بالحروب الصّليبية، هذا على الرغم من أن جميع هذه الحملات كانت حروباً يمكن أن نسمّيها بالحروب الصّليبية، لأنها تمّت تحت شعار الصّليب وفي أغلب الأحيان بمساعدة الكنيسة، لقد اختلفت الحروب الصّليبية في الشرق الإسلامي عن غيرها في أنها دارت على أراض يقدّسها اليهود والنصارى والمسلمون، وعلى مدى زمني يقرب من قرنين كانت فترات السّلم خلاله أطول من فترات الحرب وصَاحَبَها قدرٌ من التعايش بين المسلمين والصّليبيين، فضلاً عن الأعداد الكبيرة التي اشتركت فيها من مختلف الجنسيات واللغات، وقد نتجت عن هذا القدر من التعايش بالضرورة تأثيرات شرقية على حياة الصّليبيين المقيمين، وكان لها انعكاس على الحياة في الغرب الأوروبي في مختلف المجالات[1]، لذلك استأثرت هذه الحروب الصّليبية باهتمام المُفكّرين في كل من الغرب والشرق، وثارت حولها الآراء والخلافات بين المؤرخين وبخاصة أسبابها، فهناك من المؤرّخين من يُرْجِع هذه الحروب إلى أسباب دينية،

(1) زكي النقاش، العلاقات ص 133-134.

ومنهم من يُرْجعها إلى أسباب سياسية أو أسباب اجتماعية واقتصادية.

يرى بعض المؤرّخين أن الحركة الصّليبية انطلاقة كبرى عن حركة الإحياء الديني التي ظهرت في الغرب الأوروبي في القرن العاشر الميلادي، وبلغت أشُدّها في القرن الحادي عشر، وقد أدت هذه الحركة إلى تقوية مركز البابوية وإثارة الحماسة الدينية في نفوس الناس[1] ، الأمر الذي جعل البابويّة تطمح إلى السيطرة على العالم النصراني عن طريق ضم الكنيسة الشرقية واحتلال الأماكن المقدسة في فلسطين. ولذلك دأبت على دعوة الأوروبيين إلى شن حرب صليبيّة على المسلمين في الشرق. ففي عام (1001) دعا البابا سيلفستر الثاني[2] إلى إنقاذ بيت المقدس، وبالفعل سارت حملة إلى الشام ولكنها فشلت في مهمتها[3] .

ولما قام الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة (سنة 1007 ميلادية) بهدم كنيسة القيامة في القدس ثارت البابوية وجنَّدت طاقاتها لإنقاذ الكنيسة[4] . وفي عام (1016) تمكّن البيازنة من طرد المسلمين من سردينيا بمساعدة البابا بنيدكت

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جـ 1 ص 22-23.

(2) Sylvester (999-1003).

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة جـ4/ 4 ص 14.

(4) عبد العظيم رمضان، الصراع بين العرب وأوروبا، ص 347.

الثامن[1] . وبمباركة البابا اسكندر الثاني[2] دخل النُّورمان صقلية الإسلامية عام (1060) ويمكن أن نعتبر ذلك مقدمة للحروب الصّليبية إذ أن أبرز قادة الحملة الصّليبية الأولى وهو بوهيموند[3] كان من سلالة النورمان الذين استولوا على صقلية[4] .

وفي عام (1074) دعا البابا جريجوري السابع[5] الغرب الأوروبي إلى إرسال حملة كبيرة لاسترداد آسيا الصغرى من السَّلاَجقة المسلمين، وكان البابا يهدف إلى ضمّ الكنيسة الشرقية تحت لواء كنيسة روما. والواقع أن جريجوري استطاعَ أن يجهّز جيشاً كبيراً[6] غير أن النزاع بينه وبين الإمبراطور الألماني هينريش (هنري) الرابع[7] حال دون مسير ذلك الجيش[8] .

وأخيراً تبنى الدعوة إلى الحروب الصّليبية البابا أوربان

---

(1) Benedict VIII (1012-1024).
(2) Alexandre II (1061-1073).
(3) Bohémond (1057-1111).
(4) أرنست باركر، الحروب الصليبية، ص 18.
(5) Grégoire VII (1073-1085)..
(6) أرنست باركر، الحروب الصّليبية، ص 19.
(7) Heinrich (Henry) V (1073-1085).
(8) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، جـ 1 ص 422.

الثاني[1] الذي يعتبر المسؤول الأول عن الترويج لحرب المسلمين في الشرق والتحريض على إرسال الحملة الصّليبية الأولى إلى الشام. وكانت الظّروف مهيّأة فسارع إلى عقد اجتماع مصغّر في بياتشنزا[2] في شهر مارس عام (1095) ولكنه أجّل هذا المجلس لقلّة عدد الحاضرين، وفضّل أن يقوم بحملة دعائية في فرنسا، وفي الثامن عشر من نوفمبر عقد مجمع كلير مونت[3] الشهير الذي استمر عشرة أيام وحضره أكثر من ثلاثمائة من رجال الكنيسة[4].

لقد ألقى البابا أوربان الثاني خطاباً[5] أثار فيه حماسة الجماهير، وأشار إلى ما أسماه بالخطر الإسلامي المحدق بأوروبا من جهة القسطنطينية. وأعلن أن النصارى في الشرق يعانون من ظلم المسلمين، وأن الكنائس والأديرة أصابها الدمار، وحثّ الحاضرين والأوروبيين عامة على الانتقام من المسلمين الذين أصبحت قوتهم تهدد أوروبا وهو يعني السلاجقة في آسيا الصغرى والشام. وأشاد في ثنايا كلامه بالدور الذي قام به

---

(1) Urbain II (1099-108).

(2) Piacenza في ايطاليا.

(3) Clermont-Ferrand في فرنسا.

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة، 4/ 4 ص 14.

(5) انظر نص هذا الخطاب في الملحق رقم 1.

شارلمان[1] في أسبانيا واعتبره مثلاً عظيماً في البطولة، وأهاب بالناس أن يتجنبوا الحروب الأهلية وأن يحوّلوا قوتهم إلى محاربة الإسلام. وبعد أن انتهى البابا من خطابه صاح الحاضرون هاتفين «تلك إرادة الله»[2]. ولأجل أن يشجع البابا الجموع على الاشتراك في الحرب وعدهم برفع العقوبات عن المذنبين منهم، وإعفائهم من الضرائب، وحمايتهم من أي اعتداء عليهم، ورعاية الكنيسة لأسرهم[3]. ولذلك استجاب كثير من الفرنجة وحملوا الصُّلبان على أكتافهم وساروا إلى الشرق[4].

وكان من أكبر المحرّضين على سير الحملة الصّليبية الأولى أيضاً بطرس الناسك[5] الذي كان قد سافر من قبل إلى فلسطين لزيارة الأماكن المقدسة. لقد زعم بطرس أنه رأى في منامه المسيح يأمره بمقابلة البابا أوربان الثاني وحثّه على الدعوة لحرب صليبيّة في الشام[6]. وعلى الرغم من أن بطرس لم يشهد فيما يبدو مجمع كليرمونت فإنه لم يكد ينتهي عام (1095) حتى أخذ يدعو إلى الحرب الصّليبية، وظَنَّ الناس أن بطرس كان يَعْلَمُ الغيبَ،

---

(1) Charlemagne (742-814).

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة جـ 4/ 4 ص 16.

(3) مكسيموس مونروند، من تاريخ الحرب المقدسة جـ 1 ص 17.

(4) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة ص 18.

(5) Pierre l'Ermite.

(6) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين ص 65.

وكان رجل العصور الوسطى يعتقد في قرب القيامة وضرورة الاستغفار، وانتاب الأوروبيين شعور عام بالندم والذنب نتيجة لما مارسوه من حياة بعيدة عن أجواء الأديرة والكنائس. وأقبلوا على أمكنة العبادة ينشدون التكفير عما اقترفوه من آثام[1] . وإيحاءً من هذا الشعور كثرت الأقوال بالرؤى والتنبؤات وأصبح من المألوف أن يدَّعِي الفرد منهم رؤية المسيح يأمره بتحرير قبره في بيت المقدس كما يزعمون فيصدّقه الناس لأن نفوسهم كانت مهيّأة لقبول مثل هذه الادعاءات والخرافات. وفي هذا الجو المشحون بالخوف والشعور بالندم ظهر بطرس الناسك[2] .

كان من تعاليم الكنيسة أنه يصح التكفير عن الذنب بتأدية الحج. ولنأخذ مثلاً، فروتمون سيد بريتوني[3] ، الذي كان قد قتل عمه وأخاه الأصغر، وأراد أن يكفر عن فعلته، فمثل أمام محكمة من القساوسة، الذين فرضوا عليه السفر إلى فلسطين حافي القدمين، عاري الجسد، كشرط إلزامي لقبول توبته. سافر فورتمون إلى القدس ثم اتجه إلى سيناء، فمصر، حتى إذا ما وصل تونس أبحر منها إلى روما، وقابل البابا الذي أمره بالعودة إلى فلسطين مرة أخرى، وهكذا عاد إلى هناك حيث مكث في سيناء

(1) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية جـ 1 ص 180-182.
(2) جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص 64.
(3) Frotmond de Bretagne

ثلاث سنين، ثم قفل راجعاً إلى أوروبا عبر أرمينيا، فاستقبله قومه باعتباره قديساً[1] .

وعندما أوشكت الألف الأولى على الانتهاء انتاب الناس في أوروبا شعور بدنو القيامة، فكثرت حملات الحج الغربي، وكانت الحملة الواحدة تضم أحياناً بضعة آلاف، يذكر لنا التاريخ أن جونتر أسقف بامبير[2]، وسيغفريد رئيس أساقفة كولوني[3] ، غادرا في نوفمبر عام 1064، إلى الشرق بحملة قوامها سبعة آلاف حاج وصلوا القدس في 12 أبريل سنة 1065 بعد معاناة من مخاطر الطريق، وغارات البدو، ومكثوا في القدس ثلاثة عشر يوماً، وفي طريق العودة مات الأسقف جونتر، وتزعم الروايات الغربية أنه لم يعد إلى أوروبا من هؤلاء الحجاج سوى ألفين، والبقية قضوا في الطريق، أو بقوا في الشرق في الكنائس والأديرة، أو فقدوا في ظروف غامضة[4] .

هذه الحملات ذات الأعداد الكبيرة، دعت بعض المؤرخين إلى القول بأن الحملة الصّليبية كانت استمراراً لحملات الحجّ الكبرى المألوفة لا يفرّقها عن غيرها سوى كثرة العدد والعتاد[5] . ولكن

---

(1) BARRET, Si je t'oubli Jerusalem.p.42-43

(2) Gunther de Bambere

(3) Siegfried de Cologne

(4) BARRET, Op, Cit. p. 51-54

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية جـ 1 ص 22-24.

كيف لأحد أن يعتبر الحروب الصّليبية في الشرق الإسلامي حملات حجّ كما قال أصحاب هذا الرأي، فالصّليبيون جاؤوا بجيوش جرّارة تحت قيادات سياسية ودينية حملت معها من السلاح ما حملت، ومن المعروف أن حملات الحجّ تكون حملات سلميّة لا يحمل فيها الحجاج معهم غير ما يدفع عنهم مخاطر الطريق.

وفيما يتعلق بالأسباب السياسية نرى ابن الأثير يقول: « فلما كانت سنة تسعين وأربعمائة خرجوا [الصّليبيون] إلى بلاد الشام، وكان سبب خروجهم أن ملكهم بردويل[1] جمع جمعاً كثيراً من الفرَنج، وكان نسيب رجار[2] الفرنجي الذي ملك صقلية. فأرسل إلى رجار يقول له: قد جمعت جمعاً كثيراً وأنا واصل إليك وسائر من عندك إلى إفريقية أفتحها. فجمع رجار أصحابه واستشارهم في ذلك وقالوا: وحقّ الإنجيل هذا جيد لنا ولهم وتصبح البلاد بلاد النصرانية. فرفع رجله وحَبَقَ حَبْقَةً عظيمة وقال: وحقّ ديني هذه خير من كلامكم. قالوا: وكيف ذلك قال: إذا وصلوا إليّ أحتاج إلى كلفة كثيرة ومراكب تحملهم إلى إفريقية وعساكر من

(1) بردويل هو بلدوين Baudouin I (1058 - توفي عام 1118).
(2) Roger I كونت صقلية (1062-1101).

عندي أيضاً، فإن فتحوا البلاد كانت لهم وصارت المؤونة لهم من صقلية. وينقطع عنّي ما يصل من المال من ثمر الغَلاَّت كل سنة. وإن لم يفلحوا رجعوا إلى بلادي وأذيت بهم. وأحضر رسوله وقال له: إذا عزمتم على جهاد المسلمين فَأَفْضَلُ ذلك فتح بيت المقدس تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر. أما إفريقية فبيني وبين أهلها أَيْمَانٌ وعهود»[1].

في هذا النص نجد ابن الأثير يعزو الغزو الصَّليبي إلى المفاوضات التي تمّت بين بلدوين وبين رجار الأول كونت صقلية الذي رفض استقبال الجيوش الصّليبية التي كان بلدوين ينوي التوجه بها إلى إفريقية. ويبدو أن رجار كان على يقين من أن هذه الجموع المندفعة تشكل خطراً على أمن بلاده وبخاصة إذا فشل الصّليبيون في احتلال إفريقية. وهو لا يريد أن يحمّل بلاده مؤونة نقل الجنود من صقلية إلى الساحل الإفريقي وهو قبل كل شيء له مصالح اقتصادية وعلاقات وديّة مع هذه البلاد المسلمة. لذلك رفض فكرة بلدوين ونصحه أن يوجه هذه القوات إلى الشرق[2].

وهذا النص يكشف عن رغبة بلدوين في احتلال إفريقية، مما

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، جـ 10 ص 272-273.

(2) لم أجد في المصادر الصليبية ما يعضد رواية ابن الأثير، ونوردها هنا على وجه الاحتمال فقط.

يؤكد أن الصّليبيين لم يكن هدفهم من حروبهم في الشرق هدفاً دينياً فحسب فها هو بلدوين أحد القادة الصّليبيين يفاوض رجار على استعمار هذا الجزء من العالم الإسلامي لاستغلال خيراته. ولذلك ذهب بعض المؤرّخين مثل كالفيرلي إلى اعتبار الحروب الصّليبية في العالم مظهراً من مظاهر استرداد الأراضي من المسلمين[1] فقبل الحملة الصّليبية الأولى استطاع النُّورمان احتلال صقلية الإسلامية، كما تمكن ملوك النصارى في إسبانيا من استرداد الجزء الأعظم منها، ثم اتجهت أنظار الأوروبيين إلى فلسطين[2] .

وهناك مؤرخون اعتبروا النداءات البيزنطية سبباً للحركة الصّليبية، فقد كان وضع الإمبراطورية حرجاً من جراء توسع السلاجقة في آسيا الصغرى بعد معركة «مانزكت»[3] سنة أربعة وستين وأربعمائة هجرية سنة (1070 ميلادية) التي انتصر فيها السلاجقة على الجيش البيزنطي مما حدا بالإمبراطور ميخائيل السابع[4] أن يستنجد بالبابا جريجوري السابع الذي كاتب الزعماء الأوروبيين وأوضح لهم خطورة القوة السلجوقية على أوروبا إلاّ

---

(1) أودين كالفيرلي، «الدين الإسلامي» ص 166 .

(2) انظر روم لاندو «الإسلام والعرب» ص 123 .

(3) Manazgherd في إرمينيا.

(4) Michael VII (1071-1079).

أنهم لم يتحركوا لنُصرة البيزنطيين[1] . وعندما تولى الكسيوس الأول كومنين[2] حاول أن يوقف المدّ السلجوقي وطلب أكثر من مرة مساعدة أوروبا . ويقال إنه أرسل في حوالي عام (1088) رسالة إلى روبرت الأول أمير أراضي الفلاندر[3] يستحثه فيها على إرسال النجدات إلى القسطنطينية لدفع خطر السلاجقة عنها ، ثم التوجه بعد ذلك للاستيلاء على الأراضي المقدسة . وضمن ما جاء في هذا الخطاب أن السلاجقة يقومون بقتل النصارى في آسيا الصغرى ، وأن على الأوروبيين أن يمدوا يد المساعدة العاجلة لينقذوا القسطنطينية لما تحويه من آثار وكنوز وأن يعملوا على تحرير قبر المسيح (هكَذا) وأن المسلمين في فلسطين يذبحون الأطفال والشباب داخل الكنائس ، واستولوا على كل المنطقة الممتدة من بيت المقدس إلى بلاد اليونان «لذلك أستحلفك بمحبة الله ، وباسم جميع المسيحيين الإغريق! أن تمد لنا ولهم يد العون» .

وأشار إلى المسارعة إلى إنقاذ القسطنطينية ، «فمن الأفضل أن

---

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور ، المصدر السابق ، جـ 1 ص 422 .

(2) Alexius I Comnenus (1081-1118) .

(3) Robert I de Flandres (1071-1093) . ذهب على رأس جماعة من الحجاج إلى القدس وفي طريق عودته عام 1090 دخل في خدمة الإمبراطور الكسيوس الأول كومنين واشترك في الحرب ضد السلاجقة . انظر :

Encycl. Brit Micropaedia. vol. VII. P.610.

تكون في حوزتكم وليست في قبضة الأتراك، لأن بها أثمن آثار السيِّد المسيح، وفيها الذهب والفضة والأحجار الكريمة، والمنسوجات الحريرية»[1] .

يعتقد بعض المورخين في صحّة هذا الخطاب مثل العالم الألماني هاجينماير[2] والعالم النمساوي رهرشت[3] . وهناك منْ ينفي صدور هذا الخطاب عن الإمبراطور البيزنطي الكسيوس مثل العالمين الفرنسيين شالندون[4] ، وديل[5] ، وغيرهما من المؤرّخين المُحْدَثين[6] . ومهما كان الأمر فإنه من الثابت أن الكسيوس كومنين أرسل مندوباً لحضور اجتماع بياتشنزا ومعه رسالة للبابا أوربان الثاني يستنصره على السلاجقة المسلمين[7] ، وقد اعتبر بعض المؤرخين الغربيين هذه الرسالة السبب المباشر للحروب الصّليبية[8] والحقيقة أن هذه الرسالة وصلت مع المندوب البيزنطي أثناء اجتماع بياتشنزا الذي كان قد عقد في شهر مارس من عام (1095) للبحث في إرسال حملة إلى فلسطين، كل ما في الأمر أن

---

(1) جوزيف نسيم يوسف «العرب والروم واللاتين» ص 53.

(2) Hagenmeyer

(3) Roehricht

(4) Chalandon وكتابه Alexis Comnène

(5) diehl وكتابه L'Europe Orientale

(6) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين، ص 53.

(7) ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ 4/4 ص 13.

(8) فشر، تاريخ أوروبا، جـ 1 / ص 174.

الرسالة كانت سنداً استفاد منه أوربان في تحريض الأوروبيين عندما عقد مجمع كليرمونت بعد ذلك في شهر نوفمبر من العام نفسه.

ويستند أصحاب الرأي القائل بأن الحروب الصّليبية كانت لأسباب اقتصادية إلى خطاب أوربان نفسه. فقد عبَّر البابا في هذا الخطاب عن الوضع الاقتصادي الذي كانت تعيشه أوروبا وقتذاك قائلاً: «لا تَدَعُوا شيئاً يقعد بكم من أملاككم أو من شؤون أسركم. ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن، والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وقلل الجبال ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً، ويلتهم بعضكم بعضاً، وتتحاربون، ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية... إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج...»، ودغدغ البابا مشاعر الناس بما أورده من فقرات مقدسة، وملاحم صليبية[1]. لقد كانت الشعوب الأوروبية آنذاك تعاني من مجاعة بسبب نقص الغلال واحتكار التجار وبخاصة اليهود لها، مما زاد في أسعارها فاضطر الناس إلى أكل الأعشاب[2]، وضاقت بهم أراضيهم فرأوا في الشرق آفاقاً واسعةً، فهو الأرض التي تدرّ لبناً

---

(1) انظر Castries, la Conquête... P. 200-206

(2) عبد العظيم رمضان، الصراع بين العرب والروم، ص 138.

وعسلاً[1] . وتعرضت الأراضي الزراعية للغزوات الشمالية، وتحطمت الجسور فطغت المياه على المزارع، وكثر قطّاع الطرق فأصبح الأوروبي في خوف وجوع، وحدث أن الشهب تساقطت بكثرة مما أحدث الفزع في قلوب الناس الذين كانوا على استعداد للهجرة[2] .

وبسبب هذه الحالة التي وصلت إليها أوروبا رأى بعض المؤرخين أن الحروب الصّليبية كانت بمثابة حلقة في سلسلة الهجرات التي أعقبت سقوط الامبراطورية الرومانية في القرن الخامس الميلادي، فقد أدى هذا السقوط إلى وفود قبائل جرمانيّة أثارت الفزع في المجتمع الأوروبي ثم ما لبثت أن امتزجت هذه القبائل بالعالم الروماني مكونة عنصراً جديداً غلبت عليه الروح المجبولة على حبّ الترحال[3] . ولا نعتقد أن أحداً يوافق على أن الصّليبيين جاءوا إلى الشرق هجرة، فمن الواضح أنهم جاءوا للعدوان، وما حدث بالفعل خير دليل على هذا. والقول بأن الحروب الصّليبية كانت الحلقة الأخيرة من الغزوات الجرمانية التي غزت الغرب الأوروبي قول مردود عليه، فالجرمان الذين غزوا الغرب قدموا برجالهم ونسائهم وأطفالهم ومواشيهم وكل ما

---

(1) مكسيموس مونروند، من تاريخ الحروب المقدسة، جـ 1 ص 18-19 .
(2) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ 1 ص 180-181 .
(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية جـ 1 ص 21-22 .

يملكون للبحث عن حياة أفضل في إطار القارة الأوروبية، الأمر الذي يمكن أن نعتبر غزواتهم هجرات، وقد اندمج أغلبهم في المجتمع الرُّوماني وذابوا فيه كما حدث للفرَنجة في بلاد الغال عندما تزاوجوا مع الغالوروماِن، ونشأ عن هذا التزاوج شعب جديد هو الشعب الفرنسي، فهل حدث هذا مع الصّليبيين على الرغم من طول المدة التي استغرقها الوجود الصّليبي في الشرق الإسلامي، وقد رفعوا طوال هذه المدة شعار الحرب ضد المسلمين؟.

كان الفلاّح الأوروبي مغلوباً على أمره وكان مطالباً بالتزامات عدة لأصحاب الإقطاع الذين توارثوا الأراضي الزراعية وتركوا عدداً كبيراً من الناس بلا أرض يقتاتون منها، وكان البابا على دراية بأحوال الفلاّحين الكادحين فوعدهم بإلغاء التزاماتهم نحو أسيادهم، وأغراهم بخيرات الشرق، فأجابوه على الفور[1] .

وكان هناك من الأوروبيين من وجدوا في هذه الدعوة الصّليبية فرصةً للهروب من واقعهم المؤلم تحت نير الكنيسة، وخاصة أنهم كانوا يسمعون عن الحرية التي يتمتع بها إخوانهم النصارى الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي، لذلك يرى بعض المؤرّخين أن الذهاب في الحروب الصّليبية كان حيلة

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، أضواء جديدة ص 12-13 .

للخلاص من قيود الكنيسة[1] . ولكن ليس من المقبول أن نتصور أن الذين اشتركوا في الحملات الصّليبية وقادوها كانوا هاربين من الواقع الذي عاشه المجتمع الأوربي تحت سيطرة الكنيسة ليبحثوا عن حريتهم في الشرق، فلو كان الأمر كذلك لكان في مقدورهم أن يوجهوا نقمتهم ضد الكنيسة ليحصلوا على الحرية بكل الإمكانات التي استخدموها في محاربة المسلمين في الشرق، هذا الشرق الذي كان في وسع الأوروبي أن يرحل إليه ويعيش في ظلّ الحرية والعدالة والمساواة دون حاجة إلى حرب أو عدوان.

ولا ننسى ونحن نتحدّث في هذا المجال الدور الكبير الذي قامت به مدن إيطاليا وبخاصة البندقية، وجَنَوَا، وبيزا في الحروب الصليبية. لقد قامت هذه المدن بتوسيع نشاطها التجاري في البحر المتوسط مما أدخلها في منافسة مع المسلمين، فقد كان القائمون على التجارة الأوروبية يرون في النشاط التجاري الإسلامي خطراً على مصالحهم التجارية والاقتصادية، لذلك أيّدوا الفكرة الصّليبيّة وعملوا على إنجاحها، لأن استيلاء الصّليبيين على سواحل الشام سوف يتيح لهم مزيداً من الأرباح التجارية[2] .

(1) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية جـ 1 ص 24.

(2) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، جـ 1 ص 429-430.

الحقيقة أن الحروب الصّليبية لم تكن وليدة هذا العامل أو ذاك وإنما كانت وليدة كل هذه العوامل التي تضافرت. وإذا كان لا بد أن يُبحث عن الأماني التي كانت تعتمل في نفوس الأوروبيين الذين حرّضوا على الحرب، والذين قادوها، والذين راحوا ضحيتها من العامة والفلاحين، فإننا نرى الكنيسة الغربية فضلاً عن رغبتها في محاربة المسلمين كانت تتوق إلى توسيع رقعتها الإقطاعية والسيطرة على الكنائس الشرقية، والنبلاء كانوا يطمعون في ضم إقطاعات أخرى في الشرق تضفي عليهم مزيداً من الجاه والسلطان. أما الفرسان فقد كانوا يرون في الحرب إشباعاً لروح القتال والبطولة. وأما العامة والفلاحون الذين ساقوهم تحت شعار الصّليب فقد ظنّوا أن الرحيل إلى الشرق خلاص لهم وأمل في حياة أفضل.

وأيّاً كانت الدوافع التي أدت إلى هذه الحروب، فقد قُدِّر للصّليبيين أن يحتلوا أجزاء كبيرة من الشام، وأن يؤسسوا إمارات صليبية في وقت كانت الجبهة الإسلامية منهكة القوى. وكان الغرب الأوروبي يمد الصّليبين بحملة جديدة كلما شعر أن هناك تحركاً إسلامياً نحو تحرير بيت المقدس، وخلال هذه المدة الطويلة التي مكثها الصّليبيّون في الشرق كان هناك تفاعل مع الحضارة الإسلامية من جميع جوانبها، وعلى الرغم من أن معظم المشاركين في الزحف الصّليبي كانوا من عامة الناس إلاّ أن

معايشتهم الطويلة للحياة الشرقية أهّلتهم لأن يستفيدوا من حضارة المسلمين.

قال غوستاف لوبون[1] في كتابه «حضارة العرب» (لم تكن الحروب الصّليبية التي كان يتمخّض عنها العالم سوى نزاع عظيم بين أقوام من الهمج وحضارة تُعَدُّ من أرقى الحضارات التي عرفها التاريخ»[2] . ولكن هؤلاء الأقوام كانوا جسراً حضارياً انتقلت عبره الحضارة الإسلامية.

لقد اختلفت الآراء حول دور الشرق الإسلامي في نقل الحضارة الإسلامية إلى أوروبا فمن المؤرّخين من يرى أن حضارة الشرق كانت آخذة في الاضمحلال قبيل الغزو الصّليبي في الوقت الذي كانت فيه الحضارة الأوروبية متدنية المستوى فلا مجال في هذه الحالة للتفاعل بين الصّليبيّين والمسلمين في الشرق[3] . وأضاف أصحاب هذا الرأي أن الصّليبيّين جاؤوا محاربين لا طلاب علم وكانت ظروفهم صعبة لا تتيح لهم فرصة التأثر بالمسلمين[4] . قال ول ديورانت إن معظم المشاركين في الحملات الصّليبية لا يعنيهم من علوم الشرق شيء، لذلك فإنّ تسرب

---

(1) Gustave le Bon وكتابه La Civilisation des arabes

(2) غوستاف لوبون، حضارة العرب ص 347.

(3) فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جـ 2 ص 250.

(4) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، جـ 2 ص 1269-1270.

العلوم الإسلامية إلى الحضارة الأوروبية كان عن طريق إسبانيا وصقلّية[1] .

وأكد أحد المؤرخين على أن الحصيلة الحضارية التي استفادها الصّليبيون من الشرق ضئيلة جداً، على الرغم من طول إقامتهم فيه[2] ، وذهب بعضهم إلى أن من الخطأ أن يُعزى إلى الشرق الإسلامي أي أثر علمي، وأن من المستبعد أن تكون هذه الحروب عامل تفاعل بين الشرق والغرب لذلك فتأثير الشرق ـ كما قال هذا المؤرخ ـ أمر تافه في مجال العلوم الصّرفَة والآداب[3] .

ومن ناحية أخرى نرى كثيراً من المؤرخين يؤكدون على أهمية الشرق كمعبر من معابر الحضارة الإسلامية، ولكن بعضهم يقصر الأثر الشرقي على العلماء من الصّليبيين الذين أتاح لهم الفراغ فرصاً كثيرة تعرفوا فيها على الثقافة الإسلامية أمثال أدلارد أوف باث[4] وستيفن الأنطاكي[5] وغيرهما من ذوي الذكاء الذين عاشوا في الشرق فترة زمنية تؤهلهم للتزود بالمعارف العربية[6] .

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ4/ 4 ص 65 .

(2) ما كس مايرهوف، العلوم والطب، ص 499-500 .

(3) حيدر بامات، مجالي الإسلام، من 289 - 291 .

(4) Adelard Of Bath (1070-1135) .

(5) Stephanus Antiochenus طبيب نورماني .

(6) الدوميلي، العلم عند العرب، ص 438-440 .

وبعضهم يحصر هذا الأثر في طبقة النبلاء والأمراء والكنسيِّين[1].
وهناك مؤرّخون غربيُّون أكدوا في كتاباتهم على أن الحروب الصّليبية كانت وسيلة للتأثير الشرقي الذي أدى إلى تَفَتُّح عقول الأوروبيين، وأن هذه الحروب كانت العامل الوحيد على تقدم أوروبا، وأن تطورات العصور الوسطى في شتّى النواحي ازدهرت في أوروبا زمن الحرب الصليبية[2].

ويمكننا أن نعتبر الشرق الإسلامي معبراً من معابر الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، لأن الصّليبيين كان لهم مع المسلمين علاقات سلميَّة كانت بمثابة قناة حضارية أوصلت الأثر الشرقي إلى الأوروبيين من خلال الصّليبيين العائدين إلى بلادهم. ولم تمنع حالة الحرب المعلنة بين الإفرنج والمسلمين الاتصالات السّلمية سواء على مستوى الشعب أو القادة.

ويحدثنا ابن جُبَير عن التعايش السلمي بين الفريقين فيقول: «ومن أعجب ما يُحَدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم»[3]. ويقول: «هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم، وفي

---

(1) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ 3 ص 817-818.
(2) أحمد شلبي، الحروب الصليبية، ص 87-88.
(3) ابن جبير، الرحلة، ص 201.

الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم سلماً أو حرباً»[1] .

أمَّا على مستوى القادة فإننا نرى أنه في سنة اثنتين وستين وخمسمائة (سنة 1166 ميلادية) قامت بين شاور[2] وزير العاضد الفاطمي وبين الإفرنج علاقات وِدِّيَّة أسفرت عن إقامة مجموعة صليبية في القاهرة والإسكندرية مدة تقرب من عامين[3] . ولا شك أن هذه المجموعة قد تأثرت بالمسلمين من خلال تعاملهم اليومي معهم. وفي الشام كان ثمّة اتصالات بين أمراء المسلمين وزعماء الإفرنج فيذكر لنا أسامة بن مُنْقذ في كتابه «الاعتبار» أن دنكري[4] صاحب أنطاكيَة كان صديقاً لآلَ منقذ في شَيْزَر[5] وكان قد أرسل إليهم فارساً ومعه رسالة منه ذكر فيها أن هذا الفارس قدم من أوروبا للحجّ وفي طريق عودته يريد أن يزور شَيْزَرَ ويشاهد

---

(1) المصدر نفسه.

(2) هو أبو شجاع شَاوَرُ بن مُجير بن نزار السَّعْدي، كان يلقّب بأمير الجيوش. استولى على وزارة مصر بعد أن قتل رزيك بن صالح. وكان له علاقة بالإفرنج. ولما دخل أسد الدين شيركوه مصر اتفق مع العاضد على قتل شاور، فقتل على يد صلاح الدين الأيوبي (ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب 6/ 351 بتحقيق محمود الأرناؤوط، وخير الدِّين الزركلي، الأعلام جـ 3ص 154».

(3) البنداري، سنا البرق الشامي، ص 39.

(4) Tancrede de Hauteville أمير أنطاكية (1101-1111).

(5) شَيْزَر: قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرَّة، بينهما وبين حماة يوم، في وسطها نهر الأُرُنْدُ (العاصي). ياقوت، معجم البلدان جـ 3 ص 383 والبغدادي: مراصد الاطلاع 2/ 826).

فرسانها[1] . ويذكر أُسامة أيضاً أن جوسلين[2] صاحب تلّ بَاشر[3] أغار على الرَّقَّة[4] وقلعة جَعْبَر[5] وغنم منها غنائم كثيرة ثم عبر الفُرات وأقام على ضفّته، فعبر إليه نجم الدولة مالك[6] صاحب قلعة جعبر وكانت بينهما صداقة قديمة فاستقبله جوسلين استقبالاً حسناً وردَّ عليه الغنائم[7] .

إضافة إلى العلاقات الودِّيَّة بين المسلمين والصَّليبيين فقد كانت قصور الزعماء الصّليبيين لا تخلو من العرب[8] ، وهذا الأمر يعطينا صورة جلية عن الحياة اليومية التي يسودها التفاعل بين الفريقين مما يجعل الوجود الصّليبي في الشرق وسيلة لنقل عادات المسلمين وآدابهم إلى أوروبا. وبوساطة الصَّليبيين عرفت أوروبا الشيءَ الكثير عن الشرق[9] .

---

(1) ابن منقذ، الاعتبار، ص 69.

(2) Jocelin I de Courtenay مات عام 1113 م.

(3) قلعة حصينة وكورة واسعة في شمالي حلب (ياقوت، المعجم جـ2 ص 40).

(4) بفتح أوله وثانيه وتشديده، . . . مدينة مشهورة على الفرات (ياقوت، معجم البلدان جـ3 ص 58-59).

(5) قلعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين (ياقوت، معجم البلدان جـ2 ص142).

(6) مالك بن سالم بن بدران بن مقلد بن المسيب العقيلي، من أسرة العقيلي الذين توارثوا حكم جعبر منذ سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلى أن أخذها منهم نور الدين محمود زنكي (خير الدين الزركلي، الأعلام، جـ3 ص 72).

(7) ابن منقذ، المصدر السابق ص 90.

(8) انظر البنداري، سنا البرق الشامي، ص 90.

(9) انظر عباس محمود العقاد، أثر العرب، ص 114-115.

إننا لا نريد من هذه الأمثلة أن نثبت أن الأثر الشرقي بمستوى أثر أسبانيا وصقلية لأن هذين المعبرين ساهما مساهمة كبيرة في نقل الحضارة الإسلامية بحكم موقعهما في أوروبا، ولكننا في الوقت نفسه نؤكد أهمية الدّور الحضاري الذي قام به الشرق خلال الوجود الصّليبي على أرضه. لئن كان الصّليبي القادم مع الحملة الأولى غير مؤهل للتأثر بحضارة الشرق نظراً لتعصبه وجهله، فإن الصّليبيين فيما بعد قد تأثروا بهذه الحضارة التي كان لها أثر في تمدين الغرب، فقد استطاع الشرق أن يحضر الصّليبيين ويعدّهم لنقل آثاره إلى أوروبا. مساهماً مع المعابر الأخرى في نشر العلوم والآداب بين الأوربيين، الأمر الذي مهد لعصر النهضة الأوربية[1].

ويجدر بنا أن نورد نصاً للمؤرخ الفرنجي فوشيه دي شارتر[2] الذي أرَّخ للحملة الأولى، والذي عبَّر فيه عن مدى تأثر الصّليبيين بالحياة الجديدة حيث قال: «الآن صرنا ـ نحن الذين كنا غربيين ـ شرقيين، ومن كان منّا إيطالياً أو فرنسياً، أصبح في هذه البلاد جليلياً أو فلسطينياً. والذي كان من مواطني رِمْس[3] أو شارتر أصبح الآن صورياً أو أنطاكياً. لقد نسينا الأماكنَ التي ولدنا فيها.

(1) انظر على حسني الخربوطلي، الإسلام وأهل الذّمة، ص 206.
(2) Foucher de Chartres : راهِب وَمؤرّخ فرنسي (1058-1127).
(3) Reims : مدينة في فرنسا.

وأكثرنا لا يعرفها، بل لم يسمع بها، ولكل منّا بيته وأهله، كما لو أنه ورثه من أبيه أو من شخص سواه. وتزوج بعضنا لا من بنات أوطاننا وإنما من سوريات وأرمنيات، وحتى مسلمات مُنصَّرات، وأصبح من كان هنا يعدّ أجنبياً مواطناً، ومن كان مهاجراً صار من أهل القرار. وفي كل يوم يلحق بنا إلى الشرق أقارب وأصدقاء، تاركين وراءهم كل ما كان في حوزتهم وهم في الغرب. وأما من كانوا فقراء هناك فقد أغناهم الله هنا، ومن كان خاوي اليدين إلا من دريهمات معدودات، أصبح لديه من القطَع الذهبية ما لا يحصره عَدٌّ، ومن لم تكن لديه قرابة أصبح يمتلك - والمعطي هو الله مدينة برُمتها. فلماذا نعود إذن إلى الغرب ما دام الشرق يهيئ لنا كل هذا[1]؟.

في هذا النص نرى فوشيه شارتر يتحدث عن التغيرات التي طرأت على الصّليبيين بعد معايشتهم للمسلمين، وذكر أن بعضهم تزوج من نساء المسلمين ونصارى الشام. وبيَّن أن كثيراً من الصليبيين تمكّنوا من جمع ثروة طائلةً مما جعلهم لا يفكّرون في العودة إلى الغرب لأن الشرق أصبح في اعتقادهم الحاضر والمستقبل. وكثير منهم نسوا انتماءهم إلى بلادهم الأصلية في أوروبا، بل إن الذين ولدوا في الشرق منهم لا يعرفون عن تلك

---

(1) برنارد لويس، العرب في التاريخ، ص 216-217.

البلاد شيئاً. ولا شك أن هذا الوصف يدلُّ على ذوبان المجتمع الصّليبي في المجتمع الإسلامي مما أسفر عن تأثيرات حضارية انتقلت إلى الصّليبيين وعبرهم إلى أوروبا. وسنتحدث عن الآثار الفكرية للشرق الإسلامي في الفصول القادمة.

* * *

الفصل الثاني



الأثر اللّغوي والأدبي

نقاط العمل

دور اللغة في الاتصال الحضاري - الصّليبيون واللغة العربية - المفردات العربية في اللغات الأوربية - الشعر - فن الهجاء - التروبادور - الجوليارديون - القصة في الأدب اليوناني والرُّوماني - القصص الشرقية في التراث الأوروبي - أثر القصة العربية - التدوين التاريخي - المؤرخون الفرنجة - المؤرخون الألمان - المؤرخون الإنجليز - المؤرخون الإيطاليون - المؤرخون الصّليبيون في الشرق - الرحالة - أثر الشرق على المؤرخين الصّليبيين - المؤلف المجهول - وليم الصوري.

* * *

الأثر اللغوي

اللغة وسيلة تخاطب وتفاهم بين الناس، بها يستطيع الإنسان أن يعبّر عن غايته، ومن خلالها يعتز المرء بأُمّته، ففيها تراثه وثقافته.

وعن طريق دراسة لغة من اللغات يتعرف الباحث على مستوى الأُمَّة الحضاري، ويرصد علاقاتها من خلال الكلمات الدخيلة عليها. إذ أنَّ العلاقات التجارية والسياسيّة التي قامت وتقوم بين الشعوب تسفر عن تسرب مفردات كثيرة من لغة إلى لغة.

واللغة العربية هاجرت مع الفاتحين الأوائل من مهدها شبه الجزيرة العربية لتواكب انتشار الإسلام فأضحت لغة حضارية سائدة، لم تتأثر بغزو الغزاة بل بهرتهم بعلومها وفنونها، وهذا ما حدث للصّليبيين الذين وجدوا أنفسهم وسط محيط إسلامي يزخر بحضارة ومدنية، فلم يكونوا بمعزل عن ذلك.

لقد كانت الفرص مواتية لاتصال الصّليبيين بالمسلمين بحكم التعايش بينهم في المنطقة، حيث كانت فترات السِّلم أطول بكثير من فترات الحروب، وقد أتاح هذا فرص اللقاء بينهم على مستوى

القادة والأفراد[1] . كانت هناك في أوقات السّلم والحرب اتصالات بين زعماء العرب والإفرنج، فكانوا يوقفون حرباً دائرة ليتبادلوا عبارات التحية والاحترام، وربما اشترك الجنود في مشاهدة حفلة ممتعة[2] . فيخبرنا ابن شَدَّاد أنه في إحدى معارك عام خمسة وثمانين وخمسمائة (سنة 1189 ميلادية) سئم الرجال من القتال فقالوا: «إلى كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ، نريد أن يصطرع صبيان: صبي منا وصبي منكم، فأخرج صبيان من البلد [المسلمين] إلى صبيين من الإفرنج واشتد الحرب بين الصبيان، فوثب أحد الصبيين المسلمين إلى أحد الصبيين الكافرين فاختطفه وضرب به الأرض وقبضه أسيراً واشتد به ليأخذه فاشتراه بعض الإفرنج بدينارين وقالوا: هو أسيرك حقاً فأخذ الدينارين وأطلقه»[3] .

وقد أورد أسامة بن منقذ خبر رسالة بعث بها رجار[4] صاحب أنطاكية إلى عَمّه عزّ الدولة[5] في شَيْزَر يخبره بأنه قد أرسل فارساً

(1) فيليب حتي، موجز تاريخ الشرق الأدنى، ص 223.

(2) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحرب الصليبية، جـ 3 ص 59.

(3) ابن شَدّاد، سيرة صلاح الدين، ص 108-109.

(4) Roger d'Antioche (1112-1119).

(5) نصر بن علي بن مقلّد بن نصر بن منقذ الكنانيّ، أبو المرهف، عزّ الدولة، أمير كان له ولأسلافه حصن شيزر، ملكه بعدَ أبيه في سنة تسع وسبعين وأربعمائة وظلّ إلى حين وفاته في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة. كان شجاعاً وشاعراً وأديباً (خير الدين الزركلي، الأعلام جـ 8 ص 26).

إلى القدس في مهمة خاصة، ويطلب منه أن يؤمن سفره من أفامية[1] إلى رفنية[2]، ولما التقى الفارس بعزّ الدّين أعلمه بحقيقة هذه المهمة. ونفهم مما دار بينهما في هذا اللقاء أن الفارس كان يتحدث باللغة العربية[3]. وأخبرنا ابن شَدَّاد في معرض حديثه عن حصار المسلمين لشقيف آرنون سنة خمس وثمانين وخمس مئة أن أرناط[4] صاحب صيدا اخترق صفوف المسلمين ودخل خيمة صلاح الدِّين وتحادثا دون وسيط، لأن أرناط كان يتقن العربية وعنده مسلمٌ يقرأ له[5] كما يخبرنا وليم الصُّوري[6] أن ريمونـد كونت طرابلس[7] خلال سنوات أسره (1164-1172) عند نور الدين، انكب على تعلم اللغة العربية ودراسة سبل المسلمين وأساليبهم[8] كما أن همفري[9] سيد تبنين قام بالترجمة بين

(1) مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص (ياقوت، معجم البلدان جـ 1 ص 227).

(2) رفنية: بفتح أوله وثانيه، وكسر النون، وتشديد الياء . . . كورة ومدينة من أعمال حمص يقال لها رفنية تدمر، وقال قوم: رفنية بلدة عند طرابلس من سواحل الشام (ياقوت، معجم البلدان جـ 3 ص 55).

(3) انظر ابن منقذ، الاعتبار، ص 87.

(4) Renaud de Sidon (1171-1187).

(5) ابن شداد، سيرة صلاح الدين، ص 97.

(6) Guillaume de Tyr (113-1186).

(7) Raymond III de Tripoli (كونت طرابلس 1173-1187).

(8) وليم الصوري عند ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ 2 ص 653.

(9) Humfroi IV dt Toron (سيّد تبنين 1179-1180).

ريتشارد قلب الأسد[1] والملك العادل في المحادثات التي جرت بينهما، وأيضاً بلدوين الأبليني[2] الذي قام بالترجمة بين المصريين ولويس التاسع[3] أثناء أسره في مصر[4] .

وقد أسلفنا أن قصور زعماء الإفرنج كانت لا تخلو من كُتَّاب مسلمين، وأن وفود الصّليبيين إلى المسلمين كانت تضم عضواً مسلماً على الأقل.

وأخبرنا ابن جُبَير أنه عندما زار عكَّا ـ وكان ذلك يوم الثلاثاء العاشر من جمادى الآخرة من عام ثمانين وخمسمائة (سنة 1184 ميلادية) ـ رأى في ديوانها كُتَّاباً نصارى يكتبون بالعربية ويتكلمون بها[5] ، وقد وصلت العلاقات الوديَّة بين المسلمين والصَّليبيين إلى حد أنهم كانوا يشتركون في رعي مواشيهم ويتقاسمون الغَلَّة دون حيف[6] . وكان من مظاهر العلاقات الوديَّة أن بعض التُّجَّار المسلمين كانوا ينزلون في خانات الصّليبيين وعند الأُسَر الصّليبية، يخبرنا ابن جُبَير أن هذا هو ما شاهده في عكا[7] وقد كان بعض

---

(1) Richard the Lion Heart (1189-1199).

(2) Baudouin d'Ibelin

(3) Louis IX. (1226-1270).

(4) انظر زكي النقاش، العلاقات، ص 198.

(5) ابن جبير، الرحلة، ص 211.

(6) المصدر نفسه ص 210.

(7) ابن جبير، المصدر السابق ص 211. وانظر ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ 1 ص 611.

طلاب العلم من الصّليبيين المقيمين في الشام والوافدين من أوروبا يلتحقون بالمدارس العربية يتلقون علومهم بلغة العرب[1] ، ولا ننسى الدور الذي قامت به القبائل العربية النصرانية التي امتزجت بالصَّليبيين إخوانهم في الدِّين. فقد كان لها أثر في نشر اللغة العربية بينهم[2] .

ولا بد أن نتصور أن الصَّليبيين الذين عرفوا اللغة العربية كانوا في مجموعهم يتكلمون اللغة الدارجة لغة الحياة والمعاملات اليومية. وهذا ما كان مشاهداً في الجمارك والمصارف ومختلف الجهات والمؤسسات التي كان يعمل بها موظفون صليبيون، وأيضاً بين عامة الصّليبيين الذين كانوا يختلطون بالمسلمين في المساكن والأماكن.

وكان طبيعياً أن التجار الأوروبيين الذين يأتون إلى الموانئ الصّليبية في بلاد الشام وموانئ مصر كانوا يلتقطون بعض الألفاظ والمصطلحات العربية والدارجة التي كان الناس في الموانئ يتداولونها عادة. ولم يكن من الصّليبيين من عَرَفَ اللغة العربية الفُصحى إلاّ المثقفون الذين كانو بحكم اهتماماتهم يحرصون على دراستها، كما كانوا يحرصون على دراسة الأدب العربي، أمثال وليم الصُّوري ووليم الطرابلسي[3] .

---

(1) انظر السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام، ص 232.

(2) سعيد عاشور، الحركة الصّليبية، جـ 2 ص 1270.

(3) انظر أيضاً فيليب حتي، تاريخ لبنان، ص 390.

لقد أدت هذه المعايشة إلى تسرّب كثير من المفردات والمصطلحات العربية لا يمكن حصرها على وجه الدّقّة، لأن بعض هذه المفردات والمصطلحات، إن لم يكن أكثرها، كانت شائعة ومتداولة في المجتمع الإسلامي في إسبانيا وصقلية، وهما أيضاً من المعابر التي انتقلت منها الحضارة الإسلامية إلى أوروبا، وقد أخذ منهما الأوروبيون بما فيهم الصليبيون العائدون بعض الكلمات العربية. وغني عن القول أن المفردات العربية التي نقلت إلى اللغات الأوروبية خضعت لقواعد الإعراب اللاتينية وإعراب اللغات القومية وتَصَحَّف أكثرها في مراحل النسخ حتّى صار من الصعب تمييز أصولها العربية. وهذه مشكلة تواجه المعجميين الأوروبيين الذين يصنّفون معاجم اللغة اللاتينية الوسيطة واللغات القومية، فهم يجدون صعوبة في تكييف بعض هذه المفردات وتأصيلها وشرح معانيها[1] .

وعلى أية حال فقد استطاع بعض العلماء الأوروبيين المحدثين أن يضعوا أيديهم على مفردات عربية نقلها الصّليبيون إلى لغاتهم من الشرق الإسلامي. من هذه المفردات على سبيل المثال كلمة تعريف، في الإنجليزية Tariff ، في الفرنسية Tarif ، في الأسبانية والبرتغالية Tarifa [2] ، وليست الكلمة العربية المقابلة تعريفه، كما

(1) Dozy-Engelman. P. 348.

(2) انظر على سبيل المثال باركر، الحروب الصليبية، ص 151-152 .

كان يظن[1] وكلمة سكر، وهي من اللفظة الفارسية شكر، في الإنجليزية Sugar في الفرنسية Sucre في الإسبانية Azucar [2] . وكلمة «جلاّب» (وهو شراب معد من بعض الأعشاب المعطرة في الإنجليزية Julep والفرنسية Julep في الإسبانية والبرتغالية Julepe في الإيطالية giulebbe[3] . وكلمة «سمت» في الإنجليزية Zenith في الفرنسية Zénith في الأسبانية Azimut [4] . وكلمة «شراب» في الإنجليزية Syrup وفي الفرنسية Sirop وفي الإيطالية Sciroppo و Soroppo وفي الإسبانية axarave xarabe و axarabe . وكلمة «عود» في الإنجليزية والفرنسية Luth وفي الإيطالية Liuto وفي الإسبانية Laud وفي البرتغالية alaude [5] . وكلمة «جرة» في الإنجليزية Jar وفي الفرنسية Jarre وفي الإسبانية Aliara و Jarro وفي البرتغالية Zarro و Jarro وفي الإيطالي Giarro و Giara [6] .

* * *

---

(1) Dozy-Engelman. P. 228، انظر أيضاً عمر فروخ، الحضارة الإنسانية، ص19 .

(2) Dozy-Engelman. P. 293، انظر أيضاً ماكس ما يرهوف، العلوم والطب، ص486 .

(3) Dozy-Engelman. P. 227، انظر أيضاً هارولد لامب، شعلة الإسلام، ص640 .

(4) Dozy-Engelman. P. 218، انظر أيضاً ماكس ما يرهوب، العلوم والطب، ص486 .

(5) د. علي الغمراي «أثر الثقافة الإسلامية» ص 4 .

(6) Dozy - Engelman. P. 60.

(7) Dozy - Engelman. P. 139-140, 290-291.

الأثر الأدبي

الشعر :

جاء الأثر الأدبي امتداداً للأثر اللغوي، فقد رافق الحملات الصّليبية عدد من الشعراء، من أشهرهم بيرڤيدال[1] ، وكونان دو بيتون[2] ، وبونز دو شابتوي[3] ، وتيبو دو شامباني[4] ، والشاعران المشهوران راؤول دو بواسّون[5] ، وفيليب دو نانتو[6]، وقد وجد هؤلاء في الشرق مجالاً واسعاً لتطوير خيالهم الشعري، وكانوا في بداية الأمر مشغولين بوصف الحروب الدائرة ضد المسلمين، والظروف الحياتية خلال فترات السّلم، ولكنه وصف يمتزج فيه الخيال بالواقع .

وبعد استقرارهم في الشرق واحتكاكهم بالمسلمين واطلاعهم

---

(1) Peir Vidal شاعر إنجليزي رافق ريتشارد قلب الأسد في حملته على الشرق عام 1189م وهو من شعراء التروبادور مات عام 1210م.

(2) Conan de Béthune .

(3) Pons de Chapteuil رافق فريد ريك الثاني في الحملة السادسة على الشرق عام 1229م.

(4) Thibaut IV de Champagne .

(5) Raoul de Poissons .

(6) Philippe de Nanteuil .

على الآداب العربية تطورت مفاهيمهم الشعرية. وكان فنّ الهجاء غير معروف في الشعر الأوروبي في العصور الوسطى، وإن كان معروفاً لدى الرُّومان، إلاّ أنه في هذه العصور حَلّ محله الشعر الدّيني الذي تباركه الكنيسة وشعر المناسبات.

أما فنُّ الهجاء فقد كان مُحَرَّماً في عرف الكنيسة لأنه يؤدي إلى النقد، وهذا مايحاربه رجال الدين، لذلك تنفس الشعراء الصّليبيون الصُّعَدَاء في الجو الشرقي المفعم بالحرية، فبدأوا ينظمون قصائد الهجاء ضد الكنيسة. ونتيجة لذلك ظهر في أوروبا في القرن الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين شعراء سياسيون أمثال ماربو دي رين[1] في فرنسا، وبطرس دامياني[2] في إيطاليا، ووليم أوف جلاسجو[3] في إنكلترا، ويوردان فون بادربورن[4] في ألمانيا[5].

وكان أشهر من وجّه نقداً لاذعاً للكنيسة شعراء التروبادور[6] في جنوب فرنسا، وشعراء الطلاّب في جامعة باريس المعروفون بالجيوليارديين[7]. أما عن شعر التروبادور فقد تطور على أيدي

(1) Marbaud de Rennes.

(2) Pietro Damiani.

(3) William of Glasgow.

(4) Jordan Von Paderborn.

(5) د. علي الغمراوي «أثر الثقافة الإسلامية» ص 8 - 9.

(6) Troubadour.

(7) Goliardi.

الشعراء الذين رافقوا الحملات الصّليبية إلى الشرق[1] . ويقال: إن أول من أحدث هذا التطور جيَّوم التاسع دوق اكيتانيا[2] الذي عاش على مفترق القرنين الحادي عشر والثاني عشر، والذي أصدر ضده أسقف بواتييه[3] قراراً بحرمانه بسبب غرامه بهذا النوع من الشعر وعدم اكتراثه بتعاليم الكنيسة[4] .

اشترك جيَّوم في الحملة الصّليبية الأولى مع من اشترك فيها من شعراء التروبادور، فمكث في أنطاكية والقدس ويافا نحو سنة ونصف، خالط فيها شعراء المسلمين، وكانت هذه المدة كافية لأن تؤثر على حسه الشعري[5] ، فقد أتيح له سماع الزجل الشامي الذي كان المسلمون يتغنون به في السّلم والحرب، وكان نصارى الشام يقومون بشرح هذه الأناشيد للمهتمين من الصّليبيين[6] . والحقيقة أن أشعار جيَّوم لم يبق منها سوى إحدى عشرة قصيدة، ست قصائد منها عبارة عن شعر خليع ماجن والخمس الباقية سما فيها الشاعر إلى الحب العفيف[7] .

---

(1) د. علي الغمراوي « أثر الثقافة الإسلامية » ص9.

(2) Guillaume IX d'Aquitaine (1071-1127). كونت بواتييه ودوق أكيتاني.

(3) Poitiers مدينة مشهورة في فرنسا.

(4) عبد القادر اليوسف، العصور الوسطى الأوروبية، ص224.

(5) سهير القلماوي ومحمود علي مكي، الشعر الغنائي، ص57.

(6) حيدر بامات، مجالي الإسلام، ص300، 302.

(7) مريم البغدادي، شعراء التروبادور، ص101.

وقد سار التروبادور في أشعارهم على منوال جيَّوم أمثال سيركامون[1] الذي نظم قصيدة عن مدينة الرُّهَا، وجوفري روديل[2] الذي كان واحداً من شعراء الحملة الصّليبية الثانية[3]. وقد هام أثناء إقامته في الشام بحب كونتيسة طرابلس التي لم تسمح ظروفه بمقابلتها، فألّف فيها قصيدة «الحبّ البعيد» ارتفع فيها إلى الحبّ الرّوحي النزيه، بخلاف قصائده الماجنة التي قالها في أوروبا قبل مجيئه إلى الشرق[4].

والحقيقة أن أول ظهور للشعر التروبادوري كان في القرن الحادي عشر في شمال إسبانيا وإقليم البروفانس في جنوب فرنسا. ونظراً إلى ازدهاره في البروفانس فقد نسب إلى هذا الإقليم وعرف بالشعر البورفانسالي. وقد انتشر هذا الشعر بعد ذلك في مختلف بلدان أوروبا وبصفة خاصة في إيطاليا وإنجلترا وألمانيا[5]. وقد اختلف العلماء والنُّقَّاد على أصل هذا الشعر، بل إنهم اختلفوا على اشتقاق كلمة «التروبادور» فالبعض يرى أنها العبارة العربية «دور طرب» «وقُلِبَت طرب دور». والبعض الآخر

---

(1) Cercamon.

(2) Jaufré Rudel مات في حصار دمشق عام 1147م.

(3) سهير القلماوي ومحمود علي مكي «الشعر الغنائي» ص59-60.

(4) مريم البغدادي، المرجع نفسه ص102.

(5) عبد القادر اليوسف، العصور الوسطى الأوروبية ص224، د. علي الغمراوي، أثر الثقافة الإسلامية، ص9.

يرى أنها كلمة بروفنسالية مشتقة من الفعل البروفنسالي «تروبار»[1]، ومعناه يبحث ويبدع ويبتكر، ويقابله في الفرنسية الفعل «تروفيه»[2] فالتروبادور بهذا المعنى هو الشاعر الذي يبتكر أشكالاً شعرية جديدة لقصائده الغنائية وتستخدم الكلمة في المفرد والجمع[3] .

وقد ثبت من الدراسات الحديثة أن شعر التروبادور استمد قوالبه وصوره من الشعر العربي وخاصة من الأزجال والموشحات الأندلسية، كما أخذ منه موضوعات الغزل والحب العنيف، وهي موضوعات لم يكن الشعر الأوروبي يعرفها منذ عصور اليونان والرُّومان[4] .

ومن آثار الشعر العربي في هذا النوع من الشعر وجود القافية التي دخلت الشعر الأوروبي لأول مرة، هذا وإن كان بعض الأوروبيين قد حاولوا البرهنة على أن القافية وجدت في الشعر الأوروبي القديم في الروايات الهزلية التي كتبها الشاعر الرُّوماني «بلاوتوس»[5] في القرن الثاني قبل الميلاد، كما حاولوا البرهنة

---

(1) Trobar .

(2) Trouver .

(3) د. علي الغمراوي، أثر الثقافة الإسلامية، ص9، انظر أيضاً عبد القادر اليوسف، العصور الوسطى الأوروبية، ص224.

(4) د. علي الغمراوي المرجع المذكور ص10.

(5) Titus Maccius Plautus (توفي عام 184 قبل الميلاد) .

على أن شعراء التروبادور لم يستمدوا أفكارهم من الشعر العربي، وإنما استمدوها من فكرة الخير والجمال في الفلسفة الأفلاطونية، وأن تأثرهم كان إلى حدٍّ بعيد بشاعر الحبّ الرّوماني أوفيد(١) الذي عاش في مفترق العصر الميلادي، وأن صياغتهم للشعر كانت نتيجة لتطور طبيعي في الشعر الفرنسي القديم. وقد أراد هذا النَفَرُ من العلماء الأوروبيين أن ينفوا أصالة القافية والموضوعات في شعر التروبادور وينفوا بالتالي أثر الشعر العربي، ولكن الدراسات الحديثة أثبتت بما لا يدع مجالاً للشكّ أثر الشعر العربي في شعر التروبادور(٢).

وقدأشاع التروبادور حول النساء جوّاً من الأدب واللياقة فرضت روح الشهامة والمبادئ الإسلامية التي تدعو إلى حسن معاملة المرأة، فلم يسبق للمرأة الأوروبية في العصور القديمة والعصور الوسطى أن احتلّت مثل هذه المكانة. ففي العصور القديمة لم يكن للمرأة دورٌ يذكر في المجتمع فيما عدا النساء اللاّتي لعبن بعض الأدوار السياسية. وفي العصور الوسطى لم تكن المرأة في نظر الكنيسة إلاّ كائناً يقتصر دوره على الإنجاب. ولذلك لم يكن محض مصادفة أو محض اتجاه من الاتجاهات الآنيَّة التي تطرأ على خيال الشعراء أن تكون المرأة والتغني بأفضالها موضوعاً

---

(1) Ovidius (43 ق. م - 18م).

(2) د. علي الغمراوي « أثر الثقافة الإسلامية » ص10.

رئيسياً في شعر التروبادور، ومحوراً تدور حوله المواقف والصُّور الشعرية[1] . وقد شَبَّه بعض الشعراء البروفانسيين سيطرة محبوبته عليه كسيطرة زعيم الحشاشين[2] في الشام على أتباعه، فقال أحدهم: «أنت تسيطرين عليَّ بسحرك أكثر مما يسيطر الشيخ على حشّاشيه الذين يذهبون لقتل أعدائه الفانين» وقال آخر: «كما يخدم الحشاشون سيّدهم بإخلاص لا ينضب، كذلك أحبك بولاء لا يكلّ»[3] .

أما فيما يتعلق باتجاه الشعراء الجولياردين، فإنه اتجاه مماثل لاتجاه التروبادور من حيث عداؤهم للكنيسة. وظهر الشعر الجولياردي في شمال فرنسا بأقلام طلاب جامعة باريس الذين نادو بالتحرر من قيود الكنيسة ونبغ منهم شعراء نظموا قصائد الهجاء نقدوا فيها مواقف الكنيسة إزاء الحروب الصّليبية وتجرأوا على كشف مفاسد البابوات والرُّهبان، وهيمنة المستغلّين من رجال الإقطاع[4] .

---

(1) د. علي الغمراوي، أثر الثقافة الإسلامية، ص11.

(2) الحشاشون هو الاسم الذي أطلق على الفرع الشامي من الإسماعيلية، ولا صلة لهذا الاسم بالكلمة الأوروبية Assassin ، لأن أصل التسمية يعود إلى لفظة (حشيش) لأنهم كانوا يتعاطونه على يد أئمتهم قبل القيام بمهمة الاغتيال (دائرة المعارف الإسلامية، جـ 7 ص 434).

(3) برنارد لويس، الحشاشون، ص18.

(4) د. علي الغمراوي، أثر الثقافة الإسلامية، ص 12-13.

وكان من هؤلاء الشعراء البارزين هيودي أورليان[1] الذي درس في باريس وعلم فيها[2] . وكان لهذا الشعر الجولياردي أثر كبير في المجتمع الأوروبي والمجتمع الفرنسي بصفة خاصة، هذا المجتمع الذي جذبته أنغام الشعر المعبّرة عن واقع المأساة التي عاشها لسنوات طويلة تحت وطأة أنظمة الكنيسة الرافضة لكل جديد، وخاصة أن هذه النغمات تنسجم مع المبادئ الحرة التي أخذت تغزو أوروبا عندما وصل التراث الإسلامي إليها عن طريق إسبانيا وصقلية، والآن عبر الشرق الإسلامي الذي شهد تجمعاً أوروبياً لم يسبق له مثيل تاريخه، وقد ظهرت النغمة الجولياردية أيضاً في الشعر الغنائي الذي نظم في ألمانيا في القرن الثالث عشر وتمثل خير تمثيل في الأغاني البُورانية[3] التي نددت فيما نددت بجشع البابوات والكرادلة[4] .

* * *

---

(1) Hugues de Orléans (1150-1090).

(2) سعيد عاشور ، أوروبا العصور الوسطى، جـ 2ص441-442.

(3) Carmina burana .

(4) د. علي الغمراوي، أثر الثقافة الإسلامية، ص13 سعيد عاشور، أوروبا العصور الوسطى، جـ2 ص441-442.

القصة :

تجاوز الأثر الأدبي إلى القصة الأوروبية، فقد كان الأدب الأوروبي يفتقر إلى القصة الخيالية ذات المغزى الأخلاقي. لقد كانت القصة في الأدب اليوناني أسطورية تدور حول آلهتهم وهي ما يعرف بالقصص الميثولوجية أو «الميثولوجيا»[1] لكنها لا تتضمن فكرة أخلاقية بل إنها تصور آلهتهم بصور بشر ذوي شهوات ونزوات، وكذلك الأدب الرُّوماني الذي يخلو من القصة الهادفة. وعلى الرغم من أن اليونانيين والرُّومان عرفوا الملحمة والمسرح الشعري إلاّ أنهم لم يعرفوا فنَّ القصة الشعرية، فهذا لم يظهر في أوروبا إلاّ في بداية القرن الثاني عشر وبتأثير من القصة في الأدب الشرقي والأدب العربي بصفة خاصة[2] . ومن القصص الشرقية التي انتقلت إلى الأدب الأوروبي قصة «كليلة ودمنة» التي كتبت على شكل حوار بين الحيوانات وعرف هذا النوع القصصي باسم «فابليو»[4] وأول من كتب في هذا المجال رينار[4] حوالي سنة 1150[5] .

---

(1) Mythology .

(2) د. علي الغمراوي « أثر الثقافة الإسلامية » ص 13-14.

(3) Fabliau .

(4) Renard .

(5) عبد القادر اليوسف، العصور الوسطى الأوروبية، ص227.

ومن الطريف أن بعض الصّليبيين كانوا يعقدون مجالس أنس يروون فيها قصصاً عربية للقادمين من أوروبا، ومن هؤلاء جاك دي فيتري[1] أسقف عكا الذي حكى مقتطفات من «ألف ليلة وليلة» لبعض الصّليبيين الذين وفدوا إلى الشام وقد قاموا بعد عودتهم إلى بلادهم بقصها على أصحابهم. ونشرت هذه الأقاصيص ضمن مجموعة قصصية بعنوان «أعمال الرُّومان»[2] في القرن الرابع عشر[3] ومن خلالها ظهرت في أوروبا قصص مماثلة من أشهرها «الديكاميروني»[4] أي قصص الأيام العشرة التي كتبها في القرن نفسه الأديب الإيطالي «جيوفاني بوكاشيو»[5] الذي كان له بدوره أثر على جيوفري تشوسر[6] الأديب الإنجليزي[7] .

* * *

(1) Jacques de Vitry (1240-1170) واعظ ومؤرخ فرنسي، قدم مع الحملة الصليبية الخامسة، أصبح رئيس أساقفة عكا.

(2) Gesta Romanorum .

(3) محمد سمير عبد الحميد «الحركة الرومانتيكية» ص574.

(4) Décaméron .

(5) Giovanni Boccaccio (1375-313).

(6) Geoffrey Chaucer (1400-1342).

(7) انظر فيليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، جـ2 ص251.

تدوين التاريخ:

رافق الحملات الصّليبية مؤرّخون من مُختلف بلدان الغرب الأوروبي كان معظمهم من الفرنجة ألّفوا كتباً ومذكرات سجّلوا فيها أحداث هذه الحملات مع بعض المشاهدات والانطباعات الخاصة والمغامرات التي جمعت بين الواقع والخيال، وتضمن بعضها كثيراً من القصص والأشعار وكانت هذه الكتب نمطاً سار عليه المؤرّخون الأوروبيون الذين كتبوا عن الحروب الصّليبية وغيرها من الوقائع التاريخية، الأمر الذي أدّى إلى ظهور حركة في أوروبا لتدوين التاريخ على نحو لم يسبق له مثيل. ومن أقدم ماوصل إليها من هذه التواريخ المعاصرة للحملات الصّليبية كتاب لمؤرّخ مجهول يحتمل أن يكون نورمانياً من شبه جزيرة إيطاليا[1] وقد رافق هذا المؤرّخ الحملة الأولى وسجل حوادثها في كتابه «أعمال الفرنجة وحجّاج بيت المقدس»[2] الذي أكمله مجهول آخر إلى عام (1107) في كتاب بعنوان «تاريخ حُجَّاج أورشليم»[3].

(1) Groeber P. 390 .

انظر أيضاً المؤلف المجهول «أعمال الفرنجة»، المقدمة ص10-11.

(2) Gesta Francorum et aliorum Hierosolymitanorum .

(3) Groeber P. 310 .

ومن المؤرّخين الفرَنجة الأوائل الذين كتبوا عن الحملات فوشيه دي شارتر الذي اشترك في الحملة الأولى وشاهد احتلال نيقية ثم اتّجه مع بلدوين إلى الرُّها وأصبح قسيساً ملحقاً بقصره، وبعد أن عُين بلدوين ملكاً على بيت المقدس انتقل معه إلى القدس ولازمه حتى وفاته سنة (1118) ميلادية[1] وكتابه «أعمال الفرَنجة الحاجين إلى بيت المقدس»[2]، يتحدث عن الفترة الواقعة بين عامي (1095) (1127) ويختصر الحوادث التي جرت من سنة (1100) إلى سنة (1120) وهذا الكتاب حافل بمعلومات عن معالم فلسطين. وقد نقل عنه مؤرّخ مجهول مع إضافات في كتابه «أعمال الفرنجة المحاربين»[3] بدأه بعام (1095) وختمه بعام (1106). كما قام مؤلف آخر بالنقل منه في الجزء الثاني من كتابه «تاريخ أورشليم»[4] الذي غطى الفترة من عام (1100) إلى عام (1124) ويحتمل أن يكون مؤلفه ليزيارد دو تور[5] وهناك مجهول اعتمد على معلومات من فوشيه في كتاب عنوانه «تاريخ بلدوين الثالث»[6] وهو يقتصر على

---

(1) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين، ص 7 - 8.

(2) Gesta Francorum Iherusalem Peregrinatium .

(3) Gesta Francorum expugnatium Iherosalem .

(4) Historiae Iherosolymitanae .

(5) Lisiard de Tours .

(6) Historia Balduini III .

الحوادث الجارية بين سنتي (1095) و (1123)[1] .

وأيضاً من المؤرّخين الفرنجة ريمون داجيلي[2] الذي عاصر الحملة الأولى وعاش حوادثها برفقة ريمون كونت تولوز[3] وألّف عنها كتاباً مع زميل له يدعى بونس دي بلازوك[4] بعنوان «تاريخ الفرنجة الذين استولوا على بيت المقدس»[5] ، وبعد أن لقي بونس مصرعه في عام (1099) أتم ريمون الكتاب في فرنسا. تناول هذا الكتاب علاقة ريمون دو تولوز بالإمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين وأشاد بدور سيده الكونت في الحملة، وادّعى أن قصة الرؤيا التي رآها الفلاح بطرس برثولماوس[6] أثناء حصار كربوغا أمير الموصل لأنطاكية صحيحة[7] وتشير القصة إلى أن هذا الفلاح أخبر الجنود الصليبيين بأنه رأى في المنام (القديس) أندراوس[8] الذي كشف له أن الحربة التي اخترقت جنب المسيح مدفونة تحت كنيسة (القديس) بطرس في أنطاكية[9] . كما ادّعى ريمون داجيلي

---

(1) Groeber P. 310 .

(2) Raymond d'Aguilers .

(3) Raymond de Toulouse (1042-1105م).

(4) Pons de Balazuc .

(5) Historia Francorum Quicepcrum .

(6) Pierre Barthélemy . وكان هذا الحدث المزعوم يوم 14 يونيو 1098 م .

(7) جوزيف نسيم يوسف «العرب والروم واللاتين » ص5 - 7 .

(8) Saint André .

(9) انظر رانسيمان « تاريخ الحروب الصليبية » جـ1 ص 361 - 362 .

أن الحربة التي قيل إن الصّليبيين عثروا عليها في هذا الموضع هي الحربة التي طعن بها المسيح في جنبه[1] ، وهي الرواية التي زعم مؤلّف إنجيل يُوحنا أنها حدثت فقد كتب هذا المؤلف أن واحداً من العسكر طعن جنب المسيح بحربة وهو على الصّليب حسب عقيدة النصارى[2] .

وممن عاصر الحملة الأولى البرت المعروف بالبرت ديكس ـ لا شابل (آخن)[3] صاحب «مؤرخة أورشليم»[4] الموسعة التي بدأت حوادثها بسنة (1095) وانتهت بسنة (1120)[5] ، وتعتبر مصدراً مهماً من مصادر هذه الحملة، فقد استعان مؤلّفها ببعض المراسلات بين الصّليبيين وذويهم، واستمع إلى عدد ممن اشتركوا في الحملة ولم يتحامل كغيره من الصّليبيين على الإمبراطور الكسيوس كومنين بل أشاد بمواقفه تجاه الجيش الصّليبي الذي مَرّ بأراضي الدولة البيزنطية[6] . أما بطرس توديبود دو سيفريه[7] فقد ألّف كتاباً عنوانه «الرحلة إلى أورشليم»[8] روى فيه حوادث الحملة

(1) جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق، ص7.
(2) انظر يوحنا 19: 34.
(3) Albert d'Aix La Chapelle (Aachen) .
(4) Chronicon Hierosolymitanum .
(5) Groeber P. 310 .
(6) جوزيف نسيم يوسف، المرجع المذكور ص 11 - 13.
(7) Pierre Tudebode de Civray .
(8) Historia de hierosalymitana .

الأولى من عام (1095) إلى عام (1099)[1] ، ونقل معظم فقراته من مصادر سابقة، ويحتمل أنه ألّفه حوالي عام (1105)[2] ومن المؤرّخين الفرنجة أيضاً الراهب روبير رئيس دير سان ريمي[3] في ريمس بفرنسا الذي صدر ضده قرار الحرمان الكنسيّ حوالي عام (1096) فاعتكف في دير ما رموتييه[4] وفي هذا الدير دوّن كتابه «تاريخ بيت المقدس»[5] وحوادثه من مؤتمر كلير مونت سنة (1095) إلى موقعة عسقلان سنة (1099)[6] .

أما المؤرّخ الفرنجي بودري دي بورجي[7] كبير أساقفة دوْل فله كتاب بعنوان «تاريخ أورشليم والنصارى الذين اشتركوا في الحرب»[8] حوادثه بين سنتي (1095) و (1099)[9] . ذكر بودري في مقدمة كتابه أنه انتهى من تأليفه وعمره ستون عاماً، ويظن بعض المؤرّخين أن بداية تأليفه كانت في عام (1107) . والحقيقة أن بودري

---

(1) Groeber P. 309 .

(2) جوزيف نسيم يوسف « العرب والروم واللاتين » ص (14) .

(3) Robert des st. Remi ويعرف باسم روبير الراهب مات عام 1122م .

(4) Marmoutier دير على مسافة ثلاثة كيلو مترات من تور في فرنسا أسسه القديس مارتان عام 372 م .

(5) Historia Iherosolimitana .

(6) جوزيف نسيم يوسف، المرجع السابق ص 14 - 16 .

(7) Baudri de Bourgueil (1047 - 1130) أصبح رئيس أساقفة دول Dol عام 1107م .

(8) Historria Jerusalem queliker ... Cliristaw ... expugner emk .

(9) Groeber P. 310 .

لم يشترك في الحملة الأولى بل استقى معلوماته من شهود عيان إشتركوا فيها، واعتمد كثيراً على كتاب «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس» للمؤرخ المجهول، وقد نقل عن بَودري كثير من المؤرخين مثل وليم الصوّري[1] .

وهناك مؤرّخون فرنجة آخرون كتبوا عن الحملة الأولى من أشهرهم جيبَر دو نوجن[2] صاحب كتاب «تاريخ أورشليم»[3] الذي يعرف أيضاً بكتاب «أعمال الله من أجل الفرنجة»[4] وأحداثه تغطي الفترة بين عامي (1095) و (1104)[5] . وراؤول دو كاين[6] الذي ذهب إلى الشرق عام (1107) بصحبة تانكريد وبعد عام (1112) ألّف كتابه «أعمال تانكريد»[7] ، اعتمد فيه على معلومات أدلى بها تانكريد نفسه وتحدث عن بداية الحركة الصّليبية إلى سنة (1105). وهذا الكتاب مزيج من الشعر والنثر الذي لم يعن راؤول بتنقيحه ومراجعته[8] . وجوتييه[9] الذي عمل مستشاراً

(1) جوزيف نسيم يوسف « العرب والروم واللاتين » ص (16 - 17).
(2) Guibert de Nogent (1053 - 1130).
(3) Historia hierosalymitana .
(4) Gesta Dei per francos .
(5) Groeber P. 310 .
(6) Raoul de caen (المتوفي عام 1130).
(7) Gesta Tancredi .
(8) جوزيف نسيم يوسف « العرب والروم واللاتين » ص(18 - 19).
Groeber P. 310 .
(9) Gauthier le Chancelier .

لروجر أمير أنطاكية وقام بتأليف كتاب «حرب أنطاكية»[1] ركز على الصراع الذي دار بين روجر والسلاجقة عام (١١١٩)[2] .

ومن المؤرّخين الفرَنجة الذين تحدثوا عن الحملة الثانية مؤرخ مجهول ألّف كتاب «أعمال لويس السابع»[3] حوالي عام (1180) تحدث فيه عن الحملة وحوادث أخرى معاصرة وهو على غرار ما كتبه وليم الصوري وكتاب «تاريخ لويس السابع»[4] الذي يشتمل على علاقات فرنسا مع غيرها من البلدان ويقف هذا الكتاب عند سنة (1165) ثم أضيف إليه فيما بعد الحوادث التي جرت بين سنتي (1171) و (1173) وقد اعتمد فيه المؤلّف على «سيرة لويس السمين»[5] أي لويس السادس التي كتبها سوجر مقدم دير سان دوني[6] . ومنهم أيضاً جان دو جوانفيل[7] الذي صحب الملك لويس التاسع إلى الشرق عام (1248) وقام بكتابة سيرة له عبارة

---

(1) Historia Antiocheno .

(2) Groeber P. 310 .

(3) Gesta Ludovici VII (1190-1137) .

(4) Historia Ludovicic VII .

(5) Vita Ludovici Grossi (1137-1108) .

(6) Suger de st. Denis (1137 - 1108) رئيس دير سان دوني من عام 1122 وحتى مماته . انظر Gcroeber P.310. V.P. 291 .

(7) Jean de Joinville (1317-1224)، وكتابه Histoire de Saint-Louis .

عن مذكرات، وذلك بين عامي 1305 و 1309م[1] .

نذكر من المؤرّخين الألمان الذين كتبوا عن الحملات الصّليبية أكهارت فون أورا[2] الذي زار القدس سنة (1101) ودون كتاباً مفصلاً لكتاب «أعمال الفرنجة» اشتمل على وقائع رحلته وعنوانه «أورشليم»[3] وله أيضاً «المؤرخة»[4] التي روى فيها تاريخ العالم منذ الخليقة إلى سنة (1125)[5] .

وعن الحملة الثانية كتب أُوتُّو أسقف فرايزنج[6] في مؤرخته المعروفة بتاريخ المدينتين، وكان أُوتُّو في الحملة الثانية ثم عاد إلى موطنه في بافاريا[7] عام (1149)[8] .

وعن الحملة الثالثة كتب تاجينو فون باساو[9] كتاب «وصف حملة فريدريش الأول الآسيوية»[10] وهو على نمط المذكرات

(1) انظر جوانفيل، (القديس): حياته وحملاته على مصر والشام.

(2) Ekkehar t Von Aura.

(3) Hierosoiymit.

(4) Chronicon.

(5) Groeber P. 311.

(6) Otto Von Freising.

(7) Bavaria - Bayern في ألمانيا.

(8) هرنشو «علم التاريخ» ص6 حاشية2.

انظر: Groeber P.304 ؛ «الموسوعة العربية» ص254.

(9) Tageno Von Passau.

(10) Description expeditionis asiaticae Friderici.

اليومية، ذكر فيه ما شاهده في هذه الحملة وتقع حوادثه من سنة (1189) إلى سنة (1190)[1] وعن الحملة ذاتها كتب أنسبرت البافاري[2] كتاباً بعنوان «حملة الامبراطور فريدريش»[3] . وألّف الراهب جونتر فون بايرس[4] من الألزاس كتاباً عن احتلال مدينة القسطنطينية[5] تحت قيادة بودوان دو فلاندر[6] يبدأ بسنة (1205)[7] . ومن المؤرّخين الألمان أوليفييه فون كولن (كولونيا)[8] الذي ألّف كتاب «تاريخ ملوك الأرض المقدسة»[9] عرض فيه ما جرى من حوادث بين سنتي (1096) و (1213) . وقد ألحقه بكتاب مُفَصّل بعنوان «تاريخ دمياط»[10] يشمل الحوادث من عام (1217) إلى عام (1222)[11] .

وعن مشاركة أهالي منطقة الرّاين صنَّف مجهول من المنطقة

---

(1) Groeber P. 311 .

(2) Ansbert Von Bayern .

(3) Expedition Friderici imperatoris انظر : Groeber P.311

(4) Gunther Von pairis .

(5) De expugnatione Urbis constantinpoles .

(6) Baudouin de Flandre . (1171 - 1205) وهو أول الملوك الصليبيين في القسطنطينية .

(7) Groeber P. 312 .

(8) Olivier Von Koeln .

(9) Historia reyum terrae sanctae .

(10) Historia Damiatana .

(11) Groeber P. 312 .

كتاباً بعنوان «أعمال صليبيّي الرّاين»[1] تطرق فيه للرحلة البحرية إلى دمياط والاستيلاء عليها وحوادثه من سنة (1217) إلى سنة (1219)[2] . وعن رحلة الفريزيين البحرية إلى الشرق ألّف مجهول آخر كتاباً[3] اقتصر على حوادث عامي (1217) و(1218)[4] .

أما عن المؤرِّخين الإيطاليين فنذكر منهم كافارو الجنوي[5] الذي قدم إلى فلسطين عام (1100) وتردد عليها عدة مرات[6] ، وهو صاحب «حوليَّات جنوة»[7] التي تشتمل على حوادث الفترة بين عامي 1099 و 1163 وهي سنة وفاته، وله كتيب عرضاً بعنوان «تحرير مدن الشرق»[8] ألّفه في عام (1155) وتجري حوادثه من عام (1085) إلى عام (1109) ويتناول الوقائع من رحلة الحجّ التي قام

---

(1) Gesta crucifigorum Rhenanorum .

(2) Groeber P. 312 .

(3) Deitinere frisonum .

(4) Groeber P. 312 .

(5) Cafarus (Caffaro) .

(6) جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين، ص 19 .

(7) Annales de Genova هذه الحوليات أكملها المستشار أوبرت Obert إلى سنة 1173م، واتوبونس Otobonus إلى سنة 1186 م، واوجريوس بانيس Ogerius Panis إلى سنة 1186م، ومركيزيوس Marchisus إلى سنة 1224م، وبرثولماوس Bartholomaeus بتفاصيل كثيرة إلى سنة 1224 . وقد انتهت الحوليات بقلم ياكوب أوريا Jacob Auria إلى سنة 1294م . (Groeber P.295) .

(8) Liberation civitatum orientis .

بها روبير دو فلاندر إلى الاستيلاء على طرابلس والحقيقة أن هذا الكتاب لا يعرض إلاّ الوقائع الهامة وقد كتب له ياكوب أوريا تكملة[1] . ومنهم أيضاً جيوفاني دي توليبيا[2] من شمال إيطاليا في كتابه الذي ألّفه عن يوحنا ملك بيت المقدس[3] وهو يوحنا (جان) الذي كان كونت بريين[4] قبل توليه الملك[5] .

ومن المؤرّخين الإنجليز الذين عنوا بالحملات الصّليبية وعاصروها ريتشارد أوف لندن[6] صاحب كتاب «رحلة الحجّاج»[7] (حجّاج بيت المقدس) وحوادثه من عام (1187) إلى عام (1193). وقد اشترك ريتشارد في الحملة الثالثة، ويمثل كتابه عرضاً مثيراً لدور الإنجليز في هذه الحملة، ويشتمل على عدد من الأعلام[8] . ورادولف مقدم دير جوجشال[9] الذي ألف كتاباً

---

(1) Groeber P. 312 . انظر أيضاً جوزيف نسيم يوسف، العرب والروم واللاتين، ص 19 .

(2) Giovanni di Tulbia.

(3) De Johan rege Jerusalem .

(4) Jean de Brienne (1148-1237) ملك بيت المقدس (1210-1225).

(5) Encycl. Brit-Micropaedia Vol. V. P. 582-583 .

(6) Richard of London.

(7) Itinerarium Peregrinantium.

(8) Groeber P. 312 .

(9) Radulf Of Goggeshall .

عنوانه «الاستيلاء على الأرض المقدسة»[1] وضح فيه دوافع الحملة الثالثة، وغطى الفترة الممتدة من سنة (1187) إلى سنة (1191)[2] .
وكذلك راهب دير سان ألبان ماتيوباريس[3] الذي اشتهر بكتابه الموسع عن إنجلترا المعروف بتاريخ إنجلترا الأكبر أو «المؤرخة الكبرى»[4] وقد اهتم فيه بتسجيل أخبار الشرق والغرب[5] .

وفي فلسطين اشتغل بعض رجال الكنيسة في تدوين التاريخ مثل وليم الصوري الذي عين كبيراً لأساقفة صور سنة (1175) والذي سنتحدث عنه فيما بعد، وجاك دو فيتري الذي عُيِّن أسقفاً لعكا سنة (1216) وسار على نهج وليم الصّوري وألّف كتابه «تاريخ الشرق»[6] ضمّنه تاريخ الأرض المقدسة منذ عصر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى سنة (1218) كما تضمن أحوال الغرب الأوروبي من عام (1220) إلى عام (1240)[7] وقد استفاد في تأليفه من العرض الشامل الذي ورد في كتاب «تاريخ ملوك

---

(1) Expugnatro terrae Sanctae .

(2) Groeber P. 312 .

(3) Matthew Paris راهب دير St. Alban .

(4) Historia Angliaemaior (chronicon Maior).
انظر: Groeber P. 316 .

(5) هرنشو، علم التاريخ، ص 46 حاشية 3.

(6) Historia Orientalts .

(7) Groeber P. 311 .

الأرض المقدسة» لمؤلفه أوليفييه فون كولن (كولونيا). ومنهم أيضاً وليم الطرابلسي الذي كان أسقفاً لطرابلس عام (1250) ثم لبيت لحم عام (1263)، وكان يعرف اللغة العربية معرفة جيدة، وكان مطلعاً على القرآن الكريم والحديث الشريف،-واستطاع بهذه الثقافة أن يكتب مقالة عن أحوال المسلمين[1]، «حالة الشرقيين»[2].

وإلى جانب هؤلاء المؤرّخين هناك عدد كبير من الرّحالة الذين قدموا إلى الشام لزيارة الأماكن المقدسة ودونوا مذكراتهم التي أثروا بها المكتبات الأوروبية. من أوائل هؤلاء الرحالة الحاج الإسكندنافي سيولف[3] الذي جاء إلى الديار الشامية أواخر عام (1102) وقد اهتم في كتاباته بالأماكن المقدسة لدى النصارى، ووصف كنيسة القيامة، وكان كثيراً ما يتحامل على المسلمين[4]. وفي حوالي عام (1106) زار فلسطين الرحالة الروسي دانيال[5] من كييف الذي يعتبر أقدم كاتب رحلات روسي معروف. وقد وصف دانيال رحلته إلى فلسطين التي بدأت من القسطنطينية

(1) عمر عبد السلام تدمري، الحياة الثقافية، ص 72.
(2) Guillaume de Tripoli وكتابه Tractatus de statu sarrace norum .
(3) Saewulf .
(4) نقولا زيادة «رواد الشرق العربي» ص (81-82، 91).
(5) Daniel من كييف Kiev .

ومنها رحل بمحاذاة ساحل آسيا الصغرى إلى قبرص ثم إلى فلسطين، وعلى الرغم من الأخطاء الطبوغرافية التي وردت في وصفه إلاّ أن حديثه عن بيت المقدس الذي مكث فيه ما يزيد عن عام جاء دقيقاً ومفصلاً وقد قام دانيال بثلاث سفرات إلى البحر الميت والخليل ودمشق برفقة بودوان الأول ملك بيت المقدس، وبوصفه رئيساً لأحد الأديرة الروسية فقد اهتم بأديرة فلسطين فوصف دير سابا القريب من القدس[1] .

وفيما بين عام 1160 وعام 1170 قدم إلى فلسطين راهب ألماني يدعى يوحنا، قصر اهتمامه على مايتعلق بالمسيح وحياته والأماكن التي عاش فيها، واهتم بالنقوش الباقية على الصخور ونقلها[2] . وفي عام (1172) جاء إلى فلسطين ألماني آخر هو ثيوديريش [3] فوصفها وصفاً عاماً وقسم أرضها إلى أقسام طبيعية، وألقى باللائمة على الصّليبيين لجهلهم بأسماء الأماكن، وتعرض لثمار البلاد غير أنه ضمن كلامه بعض الأساطير[4] ، أما الراهب اليوناني فوكاس[5] الذي وصل إلى بلاد الشام في سنة

(1) Encyc. Brit. Micropaedia Vol. III P.371 .
انظر نقولا زيادة ، المرجع المذكور، ص 83.

(2) نقولاد زيادة، المرجع السابق، ص 84 - 85.

(3) Theoderich

(4) نقولا زيادة ، المرجع السابق ، ص 84 – 85.

(5) Phocas من كريت .

(1185) فقد كتب وصفاً لميناثي عكا وبيروت، كما كتب وصفاً لأنطاكية وكنيسة بيت لحم[1].

ونلاحظ أن رحّالة القرن الثاني عشر الميلادي لم يبدوا عنايتهم إلاّ للمعالم المسيحية، وكانوا شديدي التعصب، فانطوت مؤلفاتهم على الحقد على المسلمين، أما رحالة القرن الثالث عشر فقد كانوا نسبياً أوسع أُفقاً من سابقيهم. ومن أمثلة هؤلاء ولبرند[2] الذي زار سوريا عام (1211) ووصف الموانىء السورية وتتمار[3] الذي قدم إلى الشام سنة (1217) ووصف دمشق وأعجب بجمال طبيعتها. وذكر ما فيها من خيرات وما يتمتع به أهلها من حرية. وقد أبدى تتمار فهما للإسلام ونقل موقف المسلمين من المسيح عليه السلام، وذكر في كتاباته ملخصاً عن حياة الرسول عليه الصلاة والسلام[4]. وهناك راهب ألماني زار فلسطين عام (1283). يدعى بركارد[5] ويعرف ببركارد جبل صهيون لأنه أقام في دير على هذا الجبل، وقد وصف فلسطين وقَسمها إلى أربعة أقسام، اتخذ من عكا بداية لكل قسم ورسم لفلسطين خريطة توضح طريقته في التقسيم، واهتم بركارد بأماكن

---

(1) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص 88.

(2) Wilbrand Von Oldenbourg.

(3) Thetmar وقد زار سيناء، وبغداد.

(4) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص 90.

(5) Burchard de Mont-Sion وكتابه Descriptio Terrae Sanctae.

الآثار التي وردت في الكتاب المقدس عندهم، وكتب عن الدّيانات في فلسطين، وتحدث عن المسلمين بإنصاف إلى حدٍّ كبير[1] .

الحقيقة أن أكثر ما اهتم به مؤرخو وأدباء الغرب الأوروبي في العصور الوسطى هو التغني بأمجاد الملوك، والأباطرة، والقادة، ورجال الكنيسة، هذه الكنيسة المتسلطة التي قيّدت عقول أبناء المجتمع النصراني، غير أن المؤرّخين الصّليبيين الذين عاشوا في الشرق، والمؤرّخين الذين وفدوا للزيارة كان لابد أن يتأثروا إن قليلاً أو كثيراً بمناهج وأساليب المؤرّخين والأدباء المسلمين فضلاً عن الموضوعات الجديدة عليهم، الأمر الذي أدّى إلى حدوث تطور في مفاهيمهم وفي أساليبهم في الكتابة، وكان أكثر ما حدث من تطور ما طرأ على نظرتهم إلى الحياة. فلم يعد في الغالب يتملكهم التعصب لغرس الروح الصّليبية في النفوس والإشادة بالمعالم النصرانية في الأرض المقدسة كما كان الأمر في بداية استقرارهم في فلسطين، فقد كان بعض المؤرّخين الصّليبيين يقصرون اهتمامهم على وصف المواضع المقدسة لدى النصارى، كبيت لحم، والناصرة، وكثيراً ما يعتمدون على أقوال العامة التي تغلب عليها الخرافات والأساطير. ثم أخذت تتفتح لهم آفاق جديدة من الوعي بأحوال المسلمين ومبادئ الإسلام، فذاقوا ـ

(1) نقولا زيادة، المرجع السابق، ص 93 - 94.

لأول مرة ـ طعم الحرية وأهمية الكلمة الصادقة، فتغيرت نظرتهم إلى الحياة الإسلامية، وتغلّبت عليهم روح الكتابة الموضوعية الخالية من الأساطير التي كانت تحفل بها مؤلفات الأوروبيين في تلك العصور وخاصة المؤلفات الهجيوغرافية[1] التي تحكي حياة القديسين[2] .

وحيث أن أغلب المؤرّخين المسلمين لم يقتصروا في مؤلفاتهم على سرد الحوادث التاريخية وإنما كانوا يضمنونها معلومات جغرافية فضلاً عن غيرها من المعلومات، هذا بالإضافة إلى الكتب التي تناولت تقويم البلدان[3] ، فقد عرف الأخباريون الذين رافقوا الحملات الصّليبية هذا التقليد، فألّفوا كتباً على هذا المنوال، واهتموا قدر الإمكان برسم الخرائط التي تحتوي على تفاصيل أكثر للمدن والمواقع. وقد أمدت هذه الخرائط الأوروبيين بتصور أفضل للعالم، وساعدتهم على تحقيق أغراضهم التنصيرية، وكان أكثر الخرائط والكتب الوصفية التي اهتم بها المؤرّخون الصّليبيون ما تعلق بفلسطين، وهي الكتب والخرائط التي جذبت الكثيرين من نصارى أوروبا إلى زيارة الأرض المقدسة وغيرها من بلدان الشرق[4] .

(1) hagiographie وهو الكتاب الذي يتحدث عن الأشياء المقدسة أو القديسين.

(2) انظر أيضاً بيريل سمالي، المؤرخون في العصور الوسطى، ص (162-163، 183).

(3) السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، ص 98.

(4) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصّليبية، جـ 2 ص 1279 - 1280.

ومن الأوصاف الطريفة ما كتبه جان دي جوانفيل عن مصر ونهر النيل وإن كان أحياناً يمزج في وصفه الحقيقة بالخيال[1] .

ويظهر الفرق بين ما كتبه الصّليبيون أثناء الغزو وما كتبوه بعد ذلك -من جرَّاء تأثرهم بمؤلفات المسلمين- يظهر جلياً من المقارنة في الأسلوب التاريخي بين كتاب المؤرّخ المجهول «أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس» وكتاب «تاريخ الأعمال التي تمت في أقاليم ما وراء البحر»[2] لمؤلفه وليم الصوري أما كتاب «أعمال الفرَنجة وحجّاج بيت المقدس» فيحتمل أن مؤلفه كان من عائلة نورماندية استقرت في إيطاليا. ولا نعرف تاريخ تأليفه لهذا الكتاب على وجه التحديد. كل ما نعرفه من خلاله أنه كان معاصراً للحملة الصّليبية الأولى وأنه رافق بوهيموند قائد الفرقة الصّقلية في هذه الحملة[3] ومن الممكن أن يكون هذا المؤرّخ المجهول قد ألّف الكتاب بعد سنة (1099) وهي السنة التي تم فيها حصار عسقلان فقد ورد فيه ذكر هذا الحصار. كما أن المؤرخ ايكهارت الذي زار فلسطين عام (1101) ذكر في كتابه «أورشليم» أنه طال كتيباً يحتوي على قصة الحملة الأولى، ولعله كان يقصد بهذا الكتيب «أعمال الفرنجة وحجّاج بيت المقدس» هذا، وخاصةَ أننا نجد في كتاب

(1) انظر هذا الوصف في جوانفيل، القديس لويس ص 104 - 105 .

(2) Historia Rerum in partibus Transmarinis Gestarum .

(3) بيريل سمالي ، المرجع السابق ص173 .

ايكهارت تشابها في بعض الحواث التي رواها المؤرّخ المجهول فضلاً عن بعض المقتطفات[1] .

استهل المؤرخ المجهول كتابه بقوله: «تحقق اليوم ما اعتاد المسيح أن يقوله دائماً لأتباعه مصداقاً لما جاء في الإنجيل «إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني»[2] مما أحدث حركة عظمى شملت جميع أقطار غالة، فكان كل ذي قلب طاهر وروح سليمة، صادق النِّيَّة في اتِّباع السيد والسير وراءه مخلصاً في حمله الصليب، لا يتوانى عن المبادرة إلى الضريح المقدس»[3] ولسنا في حاجة إلى التعليق على أن هذا المستهل يظهر فيه بوضوح مدى التعصب الصّليبي الذي مهر به المؤلف وصفه للحملة التي كانت في نظره تحقيقاً لقول المسيح عليه السلام، ولم ينس أن يردد الأقوال التي فاه بها البابا أوربان الثاني وهو يدعو الجموع إلى الحرب، هذه الأقوال التي وصفها المؤلف بأنها عظات غالية استهواه منها ما ردّده البابا من نصوص العهد الجديد وخاصة مقولة المسيح إنكم ستأخذون ميراثاً عظيماً[4] هي مقولة مُعَبّرة عما كان يقصد إليه البابا[5] .

---

(1) انظر حسن حبشي، مقدمة كتاب «أعمال الفرنجة» ص13 - 14.

(2) انظر متى 16 : 24. قارن مرقس 8 : 34: (. . . من أراد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني)، ولوقا 9 : 23: (. . . إن أراد أحد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه كل يوم ويتبعني).

(3) المؤرخ المجهول «أعمال الفرنجة» ص 17.

(4) رسالة بولس إلى أهل كولوسي: 3 : 24.

(5) المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة ص 17 - 18.

ولم تفارق المؤلّف روح التعصب طوال عرضه لأحداث الحملة فكثيراً ما كان يورد فقرات من الكتاب المقدس. وقد سمّى جيش الصّليبيين جيش المسيح[1]، وقال عمن مات منهم: إنهم ماتوا في سبيل تمجيد اسمه، وأن أرواحهم هتفت وهي صاعدة إلى السماء بعدد من رؤيا يوحنا اللاهوتي القائل «. . . أيها السيد القدوس والحقّ لا تقض وتنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض»[2]. أما المسلمون فيصفهم المؤلّف بأن جيشهم جيش وثني[3] ملعون محروم من رحمة الرَّبّ[4]، وأنهم أعداء الرَّبّ والمسيحية المقدسة[5] وأعداء الرَّبّ الدنسون[6]. ومن قراءتنا للكتاب في ترجمته العربية وجدنا أنه كان يختم فصوله بعبارات وأدعية من نوع العبارات والأدعية التي تقال عادة في القداس، ويؤرّخ بالأعياد الكنسية، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أن المؤلف كان من رجال الكنيسة. وتفترض بيريل سمالي بأن أحد الرُّهْبَان كان يملي عليه أثناء الكتابة[7].

---

(1) انظر المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة، ص 35.

(2) رؤيا يوحنا اللاهوتي 6 : 10.

(3) المؤرخ المجهول، المصدر المذكور ص 37.

(4) المصدر نفسه ص 40.

(5) المصدر نفسه ص 42.

(6) المصدر نفسه ص 87.

(7) انظر بيريل سمالي «المؤرخون في العصور الوسطى» ص 176.

أما وليم الصُّوري صاحب كتاب «تاريخ الأعمال التي تمت في أقاليم ما وراء البحر» فهو من أهم المؤرّخين الذين كتبوا عن الحروب الصّليبية لأنه ولد ونشأ وعاش حياته الحافلة بالمسؤوليات على الأرض التي دارت عليها هذه الحروب. ولد وليم في فلسطين عام 1130 من أسرة فرنسية استوطنت هناك[1] ، وانخرط في حداثته في سلك الكنيسة فالتحق بالمعهد الديني لإعداد القساوسة الذي كان يديره الراهب بطرس البرشلوني[2] ، وسافر في شبابه إلى فرنسا وإيطاليا ليواصل دراساته العليا في الفلسفة واللاّهوت والقانون الكنسي والقانون المدني (الروماني)[3] وقد أهَّلته كل هذه الدراسات لمعرفة اللغتين اليونانية واللاتينية فضلاً عن لغته الفرنسية واللغة العربية التي عرفها منذ نشأته في مسقط رأسه فلسطين. كما فرضت عليه حياته العلمية أن يكون ملماً باللغتين العبرية والفارسية بعض الإلمام[4] .

بعد أن أنهى وليم دراساته العليا عاد إلى فلسطين سنة (1160)وفي سنة (1167) عين رئيساً لشمامسة صور[5] . وفي

(1) Encyc. Brit. Micropaedia Vol. X P.686 .

(2) عمر كمال توفيق، المؤرخ وليم الصوري، ص 182 - 183 .

(3) بيريل سمالي، المرجع المذكور ص 180 .

(4) عمر كمال توفيق، المؤرخ وليم الصوري، ص 182 .

(5) Encyc. Brit. Micropaedia Vol. X P.686 .

الوقت نفسه التحق بخدمة ملك بيت المقدس عموري الأول[1] الذي أحاطه بالثقة والرعاية واعتمد عليه في الشؤون السياسية والدينية، وأرسله مبعوثاً في مهمات دبلوماسية إلى القسطنطينية حيث اطلع على أحوالها أثناء إقامته فيها، وإلى روما لبحث بعض الأمور المتعلقة بكنيسة بيت المقدس اللاتينية، وهناك عرف عن كثب ما يدور في البلاط البابوي. وفي سنة (1170) عُيِّن وليم مُرَبِّياً لبودوان[2] بن عموري الذي كان آنذاك في التاسعة من عمره. وفي عام (1174) عندما اعتلى بودوان العرش باسم بودوان الرابع وكان قد بلغ الثالثة عشرة تولى الوصاية عليه ريموند الثالث أمير طرابلس[3]، وفور اختياره وصياً على المملكة قام بتعيين وليم الصوري مستشاراً للملكة وفي الوقت نفسه كبيراً للشمامسة في الناصرة[4] وفي شهر يونيو من السنة التالية (1175) عين وليم كبيراً لأساقفة صور. ولما تولى بودوان السلطة في سنة (1179) اختاره مستشاراً خاصاً له[5]. وفي السنة ذاتها سافر وليم إلى روما لحضور مجمع اللاّتيران الذي دعا إلى عقده البابا إسكندر

---

(1) Amaury I (1163 - 1174) وكان كونت يافا.

(2) Baudouin IV (1174 - 1185).

(3) انظر عمر كمال توفيق، المؤرخ وليم الصوري، ص 185 - 186. وقد لقي ريموند Raymond III de Tripoli معارضة من قبل عدد من القادة الصّليبيين واتهموه بالخيانة وبخاصة موقعة حطين حيث هرب من الميدان ومات بعد ذلك بقليل.

(4) Encyc. Brit. Micropaedia Vol. X P.686.

(5) عمر كمال توفيق، المرجع المذكور، ص 186.

الثالث[1] ، وقد أعجب بشخصيته فكلّفه بمهمة خاصة متعلقة بفكرة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية، ولا شكّ في أن وليم استفاد من هذه السفرات في توسيع دائرة معارفه[2] .

ونتيجة لعلاقاته بالبلاط البابوي أخذ وليم يتطلع إلى تولي بطريركية بيت المقدس وهي البطريركية التي تعطي رئيسها حقّ الإشراف على كنائس فلسطين، ولما عاد في سنة (1180) وجد الأوضاع ليست في صالحه، فقد تدهورت صحة الملك بودوان الرابع الذي كان مصاباً بمرض الجذام منذ طفولته، ولما لم يكن له وريث يخلفه على العرش فقد طمع النبلاء في الحكم وسادت فترة من الاضطراب[3] . وحدث أن توفي أماريك[4] بطريريك بيت المقدس في السادس عشر من اكتوبر من العام نفسه وعُين خلفاً له هرقليوس[5] كبير أساقفة قيسارية. ولما ضاعت من وليم هذه الفرصة قرر أن يعتزل الحياة العامة، وما لبث أن غادر فلسطين سنة (1183) متوجهاً إلى روما حيث مكث فيها إلى أن مات عام (1185)[6] .

---

(1) Encyc. Brit. Micropaedia Vol.P.679. X P.686 Alexandre III .

(2) عمر كمال توفيق، المرجع المذكور، ص 186.

(3) Encyc. Brit. Micropaedia Vol.IP.754. X P.686 .

(4) Aimeric de Limoges (1159-1180) انظر أيضاً عمر كمال توفيق، المؤرخ وليم الصوري، ص 187.

(5) Heraclius (1180-1187).

(6) عمر كمال توفيق، المرجع السابق ص 187-188.

كان لحياة وليم العلمية ومناصبه وأسفاره أثر كبير في ثقافته التاريخية. وكان للملك عموري الأول دور مهم في حركة التدوين التي قام بها وليم حيث أتاح له فرصة الاطلاع على المكتبة الملكية وكانت تحوي عدداً من الكتب العربية[1] . يذكر أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» أن ملك الإفرنج «بودوان الثالث»[2] استولى على مجموعة كتبه الخاصة[3] ، ونفترض أن بعض محتويات هذه المجموعة - إن لم تكن جميعها - كانت ضمن الكتب العربية التي كانت في المكتبة الملكية. ولا ريب في أن الكتب العربية التي احتوت عليها هذه المكتبة أمدت وليم بتصور لأسلوب الكتابة العربية، فضلاً عن المعلومات التي وردت فيها عن الإسلام والمسلمين. والحقيقة أن وليم لم يقتصر على قراءة الكتب العربية بل كان يجالس العلماء المسلمين كي يتزود منهم بالعلم والرأي في مختلف القضايا والموضوعات التي تناولت حقيقة الحياة الإسلامية ومنجزات المسلمين، وكان لكل هذا أثر كبير على فكره ونظرته إلى التاريخ الإسلامي والشخصيات الإسلامية، وهذا ما نجده على سبيل المثال في وصفه لنور الدِّين زنكي الذي نعته بالحكمة والفطنة[4] .

---

(1) عمر كمال توفيق، المرجع السابق ص 190 .

(2) Baudouin III (1163-1143) .

(3) أسامة بن منقذ، الاعتبار، ص 34، 35.

(4) عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص 192 .

كان الملك عَمّوري مغرماً بالتاريخ ومهتماً بتسجيل أعماله وتخليد اسمه، لذلك أوعز إلى وليم الصّوري بتأليف كتاب عنه، وقد قام وليم بتأليف كتاب وسمّاه «أعمال الملك عَمّوري»[1] اعتمد فيه على روايات القادة والجنود الذين رافقوا الملك في حملاته على مصر. وفي هذا الكتاب معلومات عن مصر وسكانها، ووصف لقصور الفاطميين وميناء الإسكندرية[2] وقد استفاد وليم في هذه المعلومات أيضاً من التفاصيل التي أمده بها البارون هوج (هيو) [3] أمير قيسارية عن رحلته إلى القاهرة ومفاوضاته مع شِيركُوه عَمّ صلاح الدِّين[4].

ألّف وليم كتاباً عن «أعمال ملوك بيت المقدس»[5]، أكمل فيه ما كتبه المؤرِّخون السابقون، فبدأ بأحداث سنة (1127) وهي السنة التي انتهى عندها المؤرخ فوشيه دي شارتر، ووصل وليم بأحداث هذا الكتاب إلى عهد عموري. واعتمد فيه على المصادر الفرنجية السابقة[6]، كما ألّف كتاباً سَمّاه «أعمال الأمراء

---

(1) Gesta Amalrici Regis .

(2) عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ض 18 - 189 .

(3) Hugues de Césarée (المتوفي عام 1169) .

(4) السيد الباز العريني، مؤرخو الحروب الصليبية، ص 128 - 131 .

(5) Gesta Hierosolymitanorum regum .

(6) عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص 189 .

الشرقيين»[1] بتكليف من الملك عَمّوري الذي كان يرغب في معرفة المزيد من المعلومات عن حكام الشرق المسلمين، وقد بدأ وليم كلامه بعصر الرسول عليه الصلاة والسلام، غير أنَّ هذا الكتاب ضاع ولم يصل إلينا[2] .

وفي عام (1182) أُدمج كتاب «أعمال ملوك بيت المقدس» وكتاب «أعمال الملك عموري» في مؤلف واحد بعنوان «تاريخ الأعمال التي تمت في أقاليم ما وراء البحر»، وقد ضمن وليم هذا المؤلف مقتطفات من كتابه المفقود «أعمال الأمراء الشرقيين» وأضاف إليه معلومات عن تاريخ بيت المقدس منذ استيلاء الفرس عليه في سنة (1614) إلى زمن الحملة الصليبية الأولى، وكتب مقدمة لهذا الكتاب في عام (1184)[3] بيّن فيها منهجه في الكتابة ورأيه في تدوين التاريخ.

تحدَّث وليم الصُّوري في مقدمته عن صعوبة مهمة المؤرخ الذي عليه أن يتحرى الحقيقة فيما يقول أو يكتب رغم ما يجلب عليه هذا النهج من الحقد والكراهية. فلا ينبغي للمؤرخ أن يصمت إزاء ما يحدث حوله بل عليه أن يتبع الحقّ أينما كان، وقال: إن التغاضي عن ذكر الحقيقة الواقعة للأحداث وإخفاء الأمور عمداً،

---

(1) Gesta Orientalium Principum .

(2) عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص 190 .

(3) عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص 191 .

أمر ينافي واجب المؤرخ، «وذكر أن الذين يزوِّرون التاريخ ويدسون فيه الأكاذيب ليسوا من طائفة المؤرّخين. وذكر أن تشويه الحقائق والأحداث يعود إلى غموض أسلوب بعض المؤرّخين، وقلّة المعلومات لديهم» وقال «إن تدوين الأفكار الإنسانية دون القدرة على تنسيقها وعرضها بشكل واضح، واجتذاب القارئ بطريقة شائقة، هو عمل رجل جاهل يسيء إلى الأدب، ولا يحسن استغلال وقت فراغه».

وقال: إن المؤرخ أمام أمرين: إمَّا أن يغضب الكثيرين في سبيل الحقيقة، أو أن يلتزم الصمت إزاء ما يجري أمامه بغية كسب رضا الناس وفي ذلك مخالفة صريحة لأمانة المؤرخ. وذكر أن عملية التأليف صعبة وشاقة وأنه ما كان ليقبل بمثل هذا العمل لولا حبّه لوطنه وخوفه على إنجازاته من النسيان والاندثار.

لقد اتبع وليم في عرضه للحوادث الترتيب الزمني، واعتمد على كثير من المصادر العربية، فجاء كتابه حافلاً بالمعلومات المفيدة. ومع ذلك فقد وصف نفسه وغيره من المؤرخين الصّليبيين بالرّسامين الذين لم يطلعوا بعد على أسرار المهنة، واتهم نفسه بعدم الخبرة وهذا بلا شك تواضع من مؤرّخ له قيمته في قومه[1].

---

(1) انظر مقدمة وليم الصوري:

- عمر كمال توفيق، المرجع السابق، ص 194 - 200.
- وليم الصوري، الحروب الصليبية، جـ 1 ص 49 - 56.

الفصل الثالث

الأثر العلمي والطبي

نقاط الفصل

اهتمام ملوك المسلمين بالعلم والعلماء ـ أسئلة الامبراطور فريدريك ـ وفود طلاب العلم من الشرق إلى أوروبا ـ مارستانات صلاح الدين في القاهرة والإسكندرية والقدس ـ مارستان نور الدين في دمشق ـ مشافي المصابين بالجنون ـ المشافي المتنقلة ـ رئيس الأطباء ـ مجلس الأطباء ـ طالب الطب ـ القياس والتجربة ـ أسئلة الطبيب ـ البحث عن الدواء ـ معالجة الجروح والإصابات ـ أمثلة من أسامة ابن منقذ على مستوى الطب عند الصليبيين ـ موقف الكنيسة من الطب والأطباء ـ إقبال الصليبيين على الطب العربي ـ وفود طلاب أوروبا إلى الشرق ـ ظهور المشافي في أوروبا ـ الأطباء الأوروبيون المرافقون للحملات الصليبية ـ ترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية في الشرق ـ كتاب كامل الصناعة الطبية لعلي بن عباس المجوسي.

* * *

في مجال العلوم:

زخر الشرق الإسلامي بعلماء في الهندسة والفلك والطبيعيات، ولقد ذكر ابن القفْطي في كتابه «إخبار العلماء بأخبار الحكماء»[1] عدداً كبيراً من هؤلاء مما يدل على نهضة علمية في مصر إبان القرنين السادس والسابع الهجريين، وهما القرنان اللذان حدث فيهما الاستقرار الصّليبي.

وذكر المَقْرِيزيّ أن الملك الأيّوبي الكامل كان يحب العلم ويدني العلماء، وكان يمتحن العلماء بمسائل غريبة فمن أجاب عليها قَرَّبه وأغدق عليه. ومن شدَّة حبه للعلم كان يُعدُّ للعلماء أسرَّةً حول سريره ليسامروه قبل أَن ينام في شتى العلوم[2]. ولما غادر الإمبراطور فريدريك الثاني[3] القدس إلى عكا في طريق عودته إلى بلاده سنة ست وعشرين وستمائة (وهي توافق سنة 1228 ميلادية)، بعث إلى الكامل بمسائل أشكلت عليه في الهندسة

(1) ويمكن مراجعة أخبارهم أيضاً في كتاب «طبقات الأطباء والحكماء» لابن جلجل، وكتاب «تاريخ الأطباء والفلاسفة» لإسحاق بن حنين، وقد نشرا في مصر بتحقيق فؤاد سيد رحمه الله، وأعادت نشرهما حديثاً مؤسسة الرسالة ببيروت.

(2) المقريزي، السلوك، جـ1 ص 259.

(3) Friedrich II (1197 - 1250).

والرياضيات، فعرضها الملك على الشيخ علم الدين قيصر[1] الذي كان ضليعاً في العلوم، ثم أرسل جوابها إلى فريدريك[2] .
ومن هذه المسائل التي طرحها الإمبراطور ثلاثة أسئلة: لماذا تبدو الرماح والمجاذيف منحنية قليلاً إذا غُمِرَ جزء منها في الماء؟ ولماذا يبدو نجم سهيل كبيراً عندما يكون قريباً في الأفق مع أن عدم وجود رطوبة جوية في الصحارى الجنوبية يخرج عامل الرطوبة من أن يكون تعليلاً لذلك الكبر؟ وما سبب ظهور بقع متراقصة أمام أعين أولئك الذي أصيبوا بمرض نزول الماء في أول أعراض هذا الداء أو غيره من عوارض العين[3] ؟

وكان لفريدريك اطلاع واسع على الثقافة العربية، ويكن الاحترام لعلماء الشرق. وكان على علم بمستواهم العلمي، لذلك فقد كان يرسل إليهم بالأسئلة والاستفسارا في شتَّى ميادين العلم[4] . وقد أعجب فريدريك بفلاسفة الشرق وكان يأخذ

(1) قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني الأسفوني، الملقب بتعاسيف عالم رياضي ومهندس. ولد في أسفون من صعيد مصر في سنة أربع وسبعين وخمسمائة، أقام مدة في حماة وخدم صاحبها محموداً، والمظفر وبنى له أبراجاً فلكية، وطاحوناً على نهر العاصي غاية في الدقة، وبنى للمظفر أيضاً كرة خشبية رسم عليها الكواكب. تولى نظر الدواوين في القاهرة ومات بدمشق في سنة تسع وأربعين وستمائة (خير الدين الزركلي، الأعلام جـ 1 ص 210).

(2) المقريزي، السلوك، جـ 1 ص 232.

(3) ماكس مايرهوف، العلوم والطب، ص 492.

(4) زيغريد هونكه، شمس العرب، ص 438.

بآرائهم الفلسفية وبخاصة حول فكرة الخلود[1] . ويحدثنا ابن أبي أصيبعة أن هذا الإمبراطور أرسل مبعوثاً إلى الموصل لمقابلة كمال الدِّين بن يونس[2] ومعه مسائل أشكلت على فريدريك في علم النجوم وغيره، فكتب كمال الدِّين جواب هذه الأسئلة كلها وأعطاه رسول الإمبراطور[3] . ومن دمشق وصل إلى صقلية مجموعة من علماء النجوم ومعهم جهاز لرصد حركات الكواكب وكان فريدريك قد استقدمهم للاستفادة من خبرتهم في هذا المجال[4] .

لقد كان فريدريك معجباً بحضارة الشرق، ولا شك أنه كان بمثابة وسيط بين الشرق والغرب بحكم موقع بلاده من جهة . واهتمامه الكبير بالعلوم من جهة أخرى . وعن طريقه تسربت آثار علمية إلى أوروبا . فدوره في نقل علوم الشرق كبير .

وخلال الوجود الصليبي في الشرق كان يفد عدد من طلاب العلم الأوروبيين ليتزودوا بالمعارف الشرقية، ونذكر من هؤلاء

---

(1) المرجع نفسه ص 452.

(2) أبو عمران موسى بن يونس بن محمد بن منعة. كان عالماً في العلوم الشرعية، ومعلماً في مدرسة الموصل. له دراية في الطب والفلسفة، ظل في الموصل إلى وفاته. من كتبه «كتاب الأسرار السلطانية في النجوم» (ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص 410، 412).

(3) ابن أبي أصيبعة، المصدر السابق، ص 410-411.

(4) زيغريد هونكه المرجع السابق ص 438.

آدلارد أوف باث الذي زار مصر والقدس وأنطاكية في سنة (1104) ميلادية، واستفاد من علماء المسلمين في الفلك والرياضيات، وبعد عودته إلى انجلترا عُيِّنَ مُعلماً للأمير هنري الذي أصبح فيما بعد الملك هنري الثاني[1] . واشتهر أدلارد باختباره سرعة الضوء والصوت. وقد عدَّ نفسه تلميذاً لعلماء العرب وتحمّس لمذهبهم العلمي وفَضّله على مذهب الفِرَنجة. وفي كتابه «المسائل الطبيعية» الذي ألّفه في سنة عام (1130) قال وهو يحاور أخاه خريج الجامعات الفرنجية: «إنني وقائدي هو العقل - قد تعلمت من أساتذتي العرب غير الذي تعلمته أنت، فبهرتك مظاهر السلطة بحيث وضعت في عنقك لجاماً تقاد به قياد الإنسان الحيوانات الضَّارية ولا تدري لماذا؟ ولا إلى أين؟ فقد مُنح الإنسان العقل لكي يفصل به بين الحقّ وبين الباطل. فعلينا بالعقل أولاً فإذا اهتدينا إليه - لا قبل ذلك - بحثنا في السلطة، فإن سايرت العقل قبلناها وإلاَّ لا»[2] وقد كتبت أدلارد عدة مؤلفات في الفلك، والرياضيات، والإسطرلاب، والقنص بالباز، والعلوم عند العرب، وقد ساهم في نشر هذه العلوم في أوروبا[3] .

---

(1) Henry II (1154 - 1189).

(2) نجيب العقيقي، المستشرقون، جـ1 ص111.

(3) المرجع السابق ص 112.

وفي أوائل القرن الثالث عشر الميلادي قدم إلى مصر والشام ليوناردو فيبوناتشي[1] وأصله من بيزا إلاّ أنه عاش مع والده في الجزائر فتعلّم العربية ثم سافر إلى الشرق الإسلامي حيث أتقن الرياضيات، وألّف في سنة (1202) ميلادية، كتاب «العدد»[2]، وهو أول كتاب يعرض الأرقام العربية والطريقة العشرية والصفر في أوروبا[3] وقد بيّن ليوناردو كيف أن الرموز العشرة تسهل العمليات الحسابية وتوسع من إمكانية تطبيقها[4] . وفي عام (1220) ألّف كتاباً في الهندسة التطبيقية، وقد استخدم الجبر في حَلِّ النظريات الهندسية، وهذه الطريقة لم تكن معروفة من قبل في أوروبا. كما كتب ليوناردو في سنة (1225) رسالتين لفردريك الثاني في حَلّ معادلات الدرجة الأولى والثانية[5] . وهذه المؤلفات التي نشرها ليوناردو في أوروبا نتيجة علمية لتطوافه في الشرق واتصاله بعلمائه واطلاعه على الكتب العربية.

وفي عام (1247) عثر فيليب الطرابلسي على مخطوطة عربية

---

(1) Leonardo Fibonacci (1170 - 1250).

(2) Liber Abaci .

(3) نجيب العقيقي، المرجع السابق جـ 1 ص117.

(4) مونتغمري واط « أثر الحضارة العربية » ص129.

(5) نجيب العقيقي المرجع السابق ص117.

هي « سر الأسرار » وهو عنوان كتاب منسوب لأرسطو[1] فترجمها إلى اللاتينية، فكانت أكثر كتب العصور الوسطى المتأخرة انتشاراً[2] . وهذه أمثلة على مساهمة الشرق العلمية في النهضة الأوروبية.

في مجال الطّب:

كان الشرق في عصر الحروب الصّليبية حافلاً بالمؤسسات الطبية الراقية. ففي القاهرة نجد المارستان الذي أقامه صلاح الدّين الأيوبي في قصر من قصور الفاطميين وعين عليه مسئولاً من الأطباء مهمته الإشراف على المستشفى وتوجيه الممرضين لخدمة المرضى، وجعل من اختصاصه أيضاً المحافظة على الصيدلية وتنظيم صرف الأدوية منها. وكان الممرضون يلاحظون المرضى صبحاً ومساء، وينظفون الأسرة والأغطية، ويحضرون الأغذية والأدوية في مواعيدها المحددة[3] ، وقد بلغ عدد المراجعين من

---

(1) هو أرسطو طاليس بن نيقوماخس. ولد في أسطاغيرا في بلاد البلقان، ولما بلغ ثماني سنوات جاء به أبوه إلى أثينا حيث تعلم النحو والبلاغة تسع سنين. ثم لازم أفلاطون وتعلم منه الفلسفة. وكان أفلاطون يقول لتلاميذه إذا طلبوا منه البدء بالحديث (حتى يحضر العقل) يعني أرسطو أنشأ أرسطو مدرسة المشّائين وكان من تلاميذه الإسكندر المقدوني، له كتب كثيرة في الفلسفة والطبيعيات. (انظر ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص 6 - 91).

(2) فيليب حتي، تاريخ العرب جـ1 ص785.

(3) ابن جبير ، الرحلة ، ص52.

المرضى لهذا المستشفى في اليوم الواحد حوالي أربعة آلاف شخص، وهذا العدد الكبير يدلّ على سَعَة المبنى، وكثرة الأطباء، وتوافر الدواء، ويدلّ أيضاً على الوعي الصحي لدى الناس الذين وجدوا في هذا المرفق ملجأ ضد المرض. أما المرضى الذين تقتضي أحوالهم الصحية البقاء في المستشفى فقد كانوا يُنوَّمُون على أسرة ويعتني بهم أطباء وممرضون ولا يؤذن للمريض بالخروج إلاّ إذا قرر الطبيب ذلك، وقبل أن يغادر المريض سريره يُعطى كسوة وأدوية ونفقة تؤمن له الغذاء اللازم لصحته في فترة نقاهته وراحته في المنزل[1] ، وقد خُصِّصَت في المستشفى أقسام للنساء فيها جميع الإمكانيات المتوافرة في أقسام الرجال[2] .

وفي الإسكندرية اهتم صلاح الدّين بأمر الطلبة المغتربين، فبنى لهم حمامات للمحافظة على نظافة أبدانهم، وأجرى لهم إعاشة من الغذاء الكافي، كما بنى لهم مستشفى، وكان إذا تعذّر على الطالب الذهاب إلى هذا المستشفى ذهب إليه الممرضون ثم عادوا ووصفوا حالته للطّبيب فيقرر له الدواء المناسب[3] .

وفضلاً عن هذا المارستان كان يوجد في القاهرة مارستان آخر أنشأه المنصور قلاوون وافتتحه في سنة اثنتين وثمانين وست مئة

(1) البلوي، تاج المفرق، ص219.
(2) ابن جبير، الرحلة، ص52.
(3) المصدر نفسه ص46.

(وهي توافق سنة 1283 ميلادية). وقد ذكرت المصادر أن افتتاحه للمارستان كان في حفل بهيج. وهذا يدل على مدى اهتمام قلاوون بمثل هذه المؤسسة العلاجية، وتقديره لضرورتها لشعب مصر[1]. وقد أنشئ هذا المارستان في الدار القطبية وهي من قصور الفاطميين. وبنى قلاوون مدرسة في جواره. وفي حفل الافتتاح طلب قلاوون من المحيطين به أن يناولوه قدحاً من الأشربة الطبية، وأعلن على الملأ قائلاً: «وقفت هذا المارستان على مثلي فمن دوني من أصناف الخلق»[2]. ومعنى هذا أنه أراد أن يكون العلاج مجانياً لكل مريض لا فرق بين فقير وغني. وقد بلغ من اهتمام قلاوون بهذا المارستان أن خصص له ميزانية سنوية قدرها أربعون ألف مثقال ذهب، منها أربعة آلاف للرواتب والصيّانة، والباقي مصاريف بمعدل مثقال كل يوم[3].

هذا في مصر أما في الشام فقد اتخذ صلاح الدِّين من الكنيسة المجاورة لكنيسة القيامة في القدس مارستاناً وجعل له أوقافاً، وأمدّه بالعقاقير[4]. وكان من أطباء هذا المارستان المشهورين

(1) انظر ابن خلدون «تاريخه» جـ 5 ص 403.
(2) المصدر نفسه.
(3) الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص 29.
(4) العُلَيْمي، الأنس الجليل، جـ 1 ص 391.

موفق الدين يعقوب بن سقلاب[1] الذي كان شديد الملاحظة، وحريصاً على استقصاء أحوال المرضى، فكان يتفقد أعراض المرض ويدقق في سؤال المريض عن كل ما يشعر به من آلام، ليشخص الداء ويصف الدواء[2] .

وفي دمشق بنى نور الدِّين زنكي مارستاناً أوقفه على مرضى الفقراء والأغنياء[3] . وعيَّن أبا المجد ابن أبي الحكم مشرفاً عليه[4]، وهو طبيب بارع كان يتفقد المرضى ويكتب لهم مايحتاجونه من أدوية ليقوم الممرضون بصرفها لهم على الفور، وكان من عادته أن يتوجه إلى المكتبة الطبية ليمضي فيها نحو ثلاث ساعات، ثم يذهب إلى منزله[5] . وكانت إعاشة المرضى تحتوي على أغذية

---

(1) طبيب نصراني ولد في القدس، وتعلم على يد فيلسوف راهب كان خبيراً بالطبيعيات والهندسة والحساب. واجتمع ابن سقلاب وهو في القدس بالشيخ أبي منصور النصراني الطبيب واشتغل بالطب تحت إشرافه. كان أعلم أهل زمانه بكتب جالينوس وكان ملتزماً بقوانينه في الطب، وكان معروفاً عنه الدقة في العلاج. وله إلمام باللغة اللاتينية. توفي في شهر ربيع الآخر من سنة خمس وعشرين وستمائة (انظر ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص 699 - 697).

(2) ابن أبي أصيبعة «عيون الأنباء» ص 69.

(3) أبو شامة «الروضتين» جـ 1 ص 9.

(4) أفضل الدولة أبو المجد محمد بن أبي الحكم عبيد الله بن المظفر ابن عبد الله الباهلي: طبيب، عالم بالهندسة والنجوم والموسيقى، له اهتمام بصناعة آلات الطرب، أندلسي الأصل، سكن دمشق ومات فيها في سنة سبعين وخمسمائة (خير الدين الزركلي، الأعلام جـ 6 ص 260).

(5) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص 628.

جيدة من اللحوم والفواكه والأشربة قد لا تتوافر للمريض خارج المستشفى .

ويخبرنا الظاهري بحادثة طريفة حدثت في مارستان دمشق هذا، فيروى أن طبيباً اكتشف أثناء تفقده المرضى رجلاً يدَّعي المرض، فكتب له ورقة قال فيها: «إن الضيف لا يقيم فوق ثلاثة أيام»[1] .

ولم يغفل المسلمون أمر المصابين بالجنون فقد أقاموا لهم في أماكن ملحقة بالمستشفى مقاصير لها شبابيك من حديد، وخصصوا فريقاً من الممرضين المدرّبين على معاملة هذا النوع من المرضى[2] . وكان لكل مجنون اثنان من هؤلاء الممرضين مهمتهما القيام بتنظيفه بالماء كل صباح، وإلباسه ثياباً نظيفة، ثم يذهبان به لأداء الصلاة، وسماع آيات من القرآن الكريم، ثم يتاح له فرصة التنزه مع أقرانه في الحديقة[3] .

وقد عرف الشرق نوعاً آخر من المشافي يتنقل مع الجنود أثناء المعارك .

---

(1) الظاهري «زبدة كشف الممالك» ص 44 - 45.

(2) ابن جبير «الرحلة» ص 52 .

(3) سعيد عبد الفتاح عاشور، بحوث ص 29 .

يخبرنا المقريزي أنه خلال المعركة التي وقعت بين المسلمين والفرَنج سنة أربع وستين وستمائة (وهي توافق 1265 ميلادية) جهّز الظاهر بيبرس خيمة فيها أطباء وجرّاحون وأدوية لإسعاف من يصاب من الجنود[1] .

أما عن النظام الطّبي فقد كان منصب رئيس الأطباء لا يتولاه إلاّ طبيب حاذق مُعْتَرَفٌ له بالعلم والخبرة. وقد يستمر في منصبه مدى حياته كما حدث للشيخ السّديد[2] الذي كان عالماً بالطب متقناً للعلاج، وكانت وصفاته الطبية معمولاً بها لدى الأطباء.

وبقي الشيخ في هذه المنزلة إلى أن توفي طاعناً بالسن سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة في القاهرة[3] . وكان السلطان هو الذي يعيِّن رئيس الأطباء. فيخبرنا ابن أبي أصيبعة أن مُهَذب الدين

---

(1) المقريزي «السلوك» جـ 1 ص 546.

(2) الشيخ السديد هو أبو المنصور شرف الدين بن سديد عبد الله بن علي بن داود بن المبارك، غلب عليه لقب أبيه فعرف بالشيخ السديد. وكان رئيس الأطباء في الديار المصرية، خدم خمسة من الخلفاء الفاطميين، أولهم الآمر بأحكام الله، وآخرهم العاضد. ثم خدم صلاح الدين الأيوبي مدة مقامه في القاهرة. عاش عمراً طويلاً وجمع ثروة كبيرة. وهو من بيت علم بالطب وكان أبوه طبيباً للخلفاء قبله (ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب 6 / 506 بتحقيق محمود الأرناؤوط، وخير الدين الزركلي، الأعلام جـ 4 ص105).

(3) ابن أبي أصيبعة «عيون الأنباء» ص 574.

عبد الرحيم بن علي[1] ، كان أكبر الأطباء سناً، عُيّن من قبل الملك العادل رئيساً لأطباء مصر والشام. وكان من عادة مهذّب الدّين أن يجلس على دكة ويكتب لمن يأتي إليه من المرضى وصفات طبية تصرف من صيدلية المارستان[2] . ومن الصفات التي يجب أن تتوافر فيمن يعين رئيساً للأطباء أن يكون أميناً ذا تجربة وخبرة، وكان عليه أن يحلف أن لا يجيز لمهنة الطب إلاّ من كان ضالعاً فيها، وأن يؤكد على الأطباء ألا يفشوا أسرار المرضى، ولا يمنح الطبيب رخصة لمزاولة الطب إلاّ إذا كانت لديه معدات طبية كاملة إمعاناً في ضمان المعالجة بطريقة أفضل[3] .

هذا وكان للأطباء مجلس عام يعقد في منزل واحد منهم وهو بمثابة ندوة يتبادلون فيها الآراء، ويطلعون على ما استجد من الأمور في مجال الطب. وكان من أشهر هذه المجالس مجلس

---

(1) مهذّب الدّين أبو محمد عبد الرحيم بن علي بن حامد ويعرف بالدخوار ماهر في صناعة الطب. قربه الملوك وأغدقوا عليه، وقف داره في دمشق وجعلها مدرسة للطب، وقف لها ضياعاً كثيرة، من كتبه اختصار كتاب «الحاوي في الطب» الرازي، «مقالة في الاستفراغ» و «كتاب الجنينة في الطب» توفي في دمشق سنة ثمان وعشرين وستمائة ودفن بجبل قاسيون «ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص 628، 733، 735 وابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب 7 / 224).

(2) ابن أبي أصيبعة «عيون الأنباء» ص 731 - 732.

(3) انظر ابن بسام « المحتسب » «نهاية الرتبة» ص 108 - 109.

الطبيب المعروف أبي العشائر هبة الله بن جُمَيع[1] ، الذي خدم صلاح الدين الأيوبي . وكان أبو العشائر دقيق الملاحظة يروى عنه أن أُناساً مروا أمامه يحملون مَيّتاً، فصاح بهم وطلب منهم إعادة الميت إلى بيته وأمرهم بنزع كفنه ووضعه في الحَمَّام، ثم صَبّ عليه ماءً حاراً ورشّ جلده بدواء عطّسه فبدت منه حركة خفيفة، فقال لهم أبشروا بشفائه. وقد سأله الناس كيف عرف أن الرجل لم يمت فقال إني نظرت إلى قدميه فوجدتهما قائمتين وأقدام الموتى تكون منبسطة[2] . وهذه الحادثة تبين شدة ملاحظة هذا الطبيب .

وكان من المتبع في دراسة الطب أن يقرأ الطالب عدداً من الكتب الطبية المشهورة في حضرة أستاذه كي يشرح له ما قد يغمض عليه، ويصوِّب ما قد يخطىء في فهمه، حتى إذا انتهى الطالب من هذه المرحلة النظرية بدأ في المرحلة العملية، فيقوم بمرافقة أستاذه لمشاهدة الهياكل العظمية، والاستماع إلى شرحه على الطبيعة ليتعرف على وظائف العظام وأشكال المفاصل وبذلك

(1) الموفق شمس الرئاسة أبو العشائر هبة الله بن زين بن حسن بن إفرائيم بن يعقوب بن إسماعيل ابن جميع الإسرائيلي، عالم مشهور، كثير الاجتهاد في صناعة الطب، حسن المعالجة، ولد ونشأ في فسطاط مصر وخدم صلاح الدين وركّب له الترياق الكبير الفاروق، من كتبه «كتاب الإرشاد لمصالح الأنفس والأجساد» وكتاب «التصريح بالمكنون في تنقيح القانون» (ابن أبي أصيبعة، عيون الإنباء ص 576، 579).

(2) ابن أبي أصيبعة «عيون الأنباء» ص 577.

يسهل عليه فهم الكتب التي درسها في التشريح[1] . كما يلازم الطالب أستاذه وهو يعالج المرضى لكي يجمع بين النظرية والتطبيق[2] .

وكان القياس والتجربة هما محور الصناعة الطبية. ويحسن بنا في هذا المقام أن نستشهد بقول للطبيب المسلم أبي الحسن رشيد الدين علي بن خليفة[3] الذي قال: «الأمراض لها أعمار والعلاج يحتاج إلى مساعدة الأقدار، وأكثر صناعة الطب حدس وتخمين، وقلّما يقع منه اليقين، وجزآها القياس والتجربة، لا السفسطة وحب الغلبة، ونتيجتها حفظ الصحة إذا كانت موجودة، وردُّها إذا كانت مفقودة، وفيهما يتبين سلامة الفطر ودقة الفكر ويتميز العاقل عن الجاهل، والمجد في الطلب عن المتكاسل والعَمَّال بمقتضى القياس والتجربة عن المحتال على اقتناء

---

(1) انظر البغدادي، الإفادة والاعتبار، ص1.

(2) علي بن العباس «كامل الصناعة» جـ1 ص9.

(3) علي بن خليفة بن يونس الخزرجي الأنصاري، طبيب وموسيقي عارف للأدب. وهو عَمّ ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم) صاحب طبقات الأطباء. ولد بحلب سنة تسع وستين وخمسمائة، وانتقل إلى القاهرة ثم سكن دمشق واستدعاه الملك الأمجد صاحب بعلبك وأطلق له جراية وراتباً. وتوفي في دمشق سنة ست عشرة وستمائة. من كتبه «الموجز المفيد» و«كتاب المساحة»، «طب السوق»، «رسالة في النبض وموازنته للحركات الموسيقية».
(خير الدين الزركلي، الأعلام جـ4 ص25).

المال وعلو المرتبة[1] .

وغالباً ماكان الطبيب يطيل في إلقاء الأسئلة على مريضه قبل الكشف عليه، ليتبين الظروف التي صاحبته، وليتعرف على حقيقة الأعراض التي تعينه في تشخيص المرض تشخيصاً صحيحاً. ويروى أن رجلاً جاء إلى الطبيب يوحنا بن بطلان[2] وقد انقطع صوته، فسأله ابن بطلان عن عمله فأعلمه أنه مغربل. وهنا أدرك الطبيب على الفور أن غبار الغربلة دخل إلى حلقه فتراكم وأعجزه عن الكلام، فسقاه خلاً حاذقاً[3] فانفتح حلقه وتكلم. وكان إلى جوار ابن بطلان بعض التلاميذ وخشي أن يصفوا هذا الدواء لكل مريض، فحذرهم وأخبرهم أن هذا العلاج خاص بهذه الحالة[4] .

---

(1) ابن أبي أصيبعة «عيون الأنباء» ص743.

(2) أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون بن بطلان، طبيب حاذق من بغداد. سكن القاهرة في سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ومكث فيها ثلاث سنوات، ثم سافر إلى القسطنطينية ثم سكن أنطاكية إلى أن مات فيها في سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، كان مسيحياً وسمي يوانيس. من كتبه «دعوة الأطباء» و«تقويم الصحة»، «عمدة الطبيب في معرفة النبات»، «مقالة في مداواة صبي عرضت له حصاة» (خير الدين الزركلي، الأعلام، جـ1 ص191).

(3) أي حامضاً. جاء في «الصحاح» للجوهري (حذق): «وحَذَقَ الخَلُّ يحذق حُذُقاً، أي حمض».

(4) ابن منقذ، الاعتبار ص184.

وحَدَثَ أن أمَةً لنور الدِّين زنكي مرضت وعافت الطّعام، وبعد أن فحصها كثير من الأطباء دون أن يستدلوا على حقيقة مرضها، عادها الطبيب سُكَّرة الحلبي[1] فطلب منها أن تجيبه بوضوح على كل سؤال يطرحه عليها ليتسنى له معرفة أسباب المرض. ولما عرف منها بعض المعلومات عن بلدها، ومايتناوله أهلها من طعام وشراب، لاحظ أنها تتوق إلى طعام بلدها، فلما وصف لها بعضاً من هذا الطعام أكلت منه وشُفيت[2].

وفي كل مستشفى فريق من الأطباء يتولى جمع المواد اللازمة لتركيب الأدوية وتوفيرها في خزائن المستشفى لتكون بمتناول المرضى. وكان رشيد الدِّين الصّوري[3] الذي عمل في مارستان القدس، يجوب جبال الشام ومعه رَسَّام يصوّر النباتات الطبية في مختلف أطوار نموها. ومن واقع خبرته في هذه النباتات ومعرفته

---

(1) طبيب من يهود حلب، له معرفة بالعلاج، ودراية بالدواء. كان ذا صلة بنور الدين محمود بن زنكي، (ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص637).

(2) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص 637 - 638.

(3) أبو المنصور بن أبي الفضل بن علي الصوري، كان أوحد زمانه في معرفة الأدوية، ولد في صور في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ونشأ بها، وأقام في القدس عامين يعمل في مارستانها. خدم الملك العادل ثم ابنه المعظم ثم ابنه الناصر. أقام بدمشق وكان له مجلس للطب، حرر أدوية الترياق الكبير. توفي بدمشق سنة تسع وثلاثين وستمائة (ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص699 - 700).

لها على الطبيعة ألّف كتاباً في الأدوية المفردة[1] . وكانت هناك رقابة مشددة على تصنيع الأدوية، وكان من واجبات المحتسب أن يمرّ كُلّ أسبوع على الصيادلة، وكُلّ شهر على مصانع الأدوية للكشف على العقاقير والتأكد من سلامتها وخلوها من الغش[2] .

وعلى الرغم من توافر الأدوية في مخازن المشافي، إلاّ أن الأطباء المسلمين كانوا يفضلون العلاج بالأغذية.

حدث أن رجلاً شكا إلى الطبيب رضي الدّين الرّحبي[3] . شحوباً غلب على لونه، وكان قد شرب أدوية وصفها له أطباء ولم تنفعه، فلما عرف رضي الدِّين أن هذا الرجل كان يقتصر على أكل الدجاج ولايأكل لحم الضأن، أحضر له قطعة من الدجاج وأخرى من الضأن ثم قال له: « أنت تلازم أكل لحم الدجاج فلم يأت الدم المتولد منه مشرق الحمرة كما يأتي من لحم الضأن،

---

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص 703.

(2) الشيزري، نهاية الرتبة ص42، 57.

(3) شرف الدين أبو الحسن علي بن الحسن الرْحبي، ولد بدمشق في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، اشتغل بصناعة الطب على أبيه. خدم في البيمارستان الكبير الذي أنشأه نور الدين بن زنكي في دمشق، تولى التدريس في مدرسة مهذب الدين عبد الرحيم ابن علي، من كتبه « كتاب في خلق الإنسان وهيئة أعضائه ومنفعتها »، «حواش على كتاب القانون لابن سيناء» توفي بدمشق في سنة سبع وستين وستمائة ودفن بجبل قاسيون.
(ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص 675 - 676 ، 682).

وأنت ترى لون هذا اللحم من الضأن ومباينته في اللون لهذه القطعة، فينبغي أن تترك أكل لحم الدجاج وتلازم أكل لحم الضأن فإنك تصلح وماتحتاج معه إلى علاج[1].

وإذا كان الألم الذي يشكو منه المريض من جراء جرح في جسده فإن هناك مختصين يُسَمَّون الجرائحية، وقد اشتهروا بالمهارة في معالجة الجروح والإصابات.

يروي أسامة بن منقذ أن رجلاً مسلماً ضربه إفرنجي بسيف فشق وجهه إلى أُذنيه، فجيء به محمولاً إلى شَيْزَر، وتَولاّه جرائحي فخاط وجهه وداواه فالتحم وعاد كما كان[2].

ويحدثنا أيضاً عن عَمّه الذي جُرح في عينه إثر طعنة في إحدى المعارك أدت إلى تدلي عينه على خدّه، فاستطاع الجرائحي أن يعيدها إلى مكانها ويخيط الجرح بإتقان حتّى أن من كان يراها لايصدق ماحدث لها[3].

كان هذا المستوى الطّبي الرّاقي عند المسلمين يقابله عند الصّليبيين مستوى متدن للغاية، فقد كان الطبّ عند الصّليبيين

(1) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص 675.
(2) ابن منقذ، الاعتبار، ص 163.
(3) المصدر نفسه ص 55.

عبارة عن خرافات وشعوذة. وما رواه أُسامة بن منقذ يُظْهِرُ لنا مدى التدني الذي كان عليه طب الصّليبيين. ومن المعروف أن أُسامة كان شاهد عيان اختلط بالصّليبيين، ولذلك يعتبر كلامه عنهم حُجّة لها أهميتها. فقد روى أن جيلوم دو بور [1] أخبره أثناء رحلة من عكا إلى طبرية برفقة معين الدّين أُنُرْ[2]، عن فارس في أوروبا مُرض مرضاً شديداً، فجيء إليه بقسٍ كبير فوضع عليه يديه، وكان الحاضرون يتوقعون شفاءه فور قدوم القس، غير أن القس طلب شمعاً ولينه، وعمله مثل عُقَد الإصبع ووضع كل واحدة في جانب أنفه فمات. وما كان من القس إلاّ أن التفت إليهم وقال سددت أنفه حتى يموت فيستريح[3].

وروى أُسامة أيضاً أن طبيباً اسمه ثابت كان عند آل منقذ في شَيْزَر، فطلبه منهم صاحب المُنَيْطَرة الصّليبي فمكث عنده عشرة أيام شاهد خلالها صُوَراً سيئةً من طرق العلاج. فقد جاءه فارس

---

(1) Guillaume de Bures، سيد طبرية (1120 - 1141).

(2) وزير مجير الدين أبق بن بوري صاحب دمشق. تولى الوزارة في سنة أربع وثلاثين وخمسمائة. وكانت السلطة بيده. وكان يخشى من نور الدين زنكي أن يستولي على دمشق فاستعان بالإفرنج مما جعل زنكي ينقم عليه. وفي سنة إحدى وأربعين عاد الصفاء بينهما وتزوج نور الدين ابنة معين الدين. ولما حاصر الإفرنج دمشق سنة أربع وأربعين أبدى معين الدين أنر شجاعة وصلابة (ابن قاضي شهبة، الكواكب الدرية ص111، 124، 127).

(3) ابن منقذ «الاعتبار» ص137 - 138.

صليبي يشكو من دُمّلَة ظهرت في قدمه، وجاءته امرأة قد لحقها نشاف، فعالجهما ثابت بأدوية عن خبرة وبصيرة ولكن طبيباً صليبياً اتهم ثابتاً بالجهل، وخيّر الفارس إن كان يريد العيش برجل واحدة أو يموت برجلين. فاختار الفارس أن يعيش برجل واحدة، فطلب المعالج الصّليبي فارساً قوياً ومعه فأس قاطعة فوضع قدم الفارس على خشبة وأمر بضرب ساقه حتّى سال مُخُّهَا، فمات. ثم التفت إلى المرأة وقال: إن في رأسها شيطاناً قد عشقها فأمر بحلق شعرها. ولما أقبلت على الطعام، وأكثرت من الثوم والخَرْدَل، زاد ألمها فقال: إن الشيطان دخل رأسها فأخذ الموس وشق رأسها صليباً، ثم سلخ وسطها حتى ظهر عظم الرأس فحكه بالملح فماتت[1].

هذه المآسي التي كانت تحدث في جانب الصّليبيين جعلتهم يقدّرون الطبّ عند أهل الشام ومصر، ويفضّلون أطباء المسلمين على أطبائهم. على الرغم من معارضة رجال الكنيسة وعلى رأسهم برنار دي كليرفو[2] الذي كان أحد معاصري أُسامة بن

---

(1) ابن منقذ، الاعتبار: ص132 - 133.

(2) Bernard de Clairvaux مؤسس دير كليرفو، وكان أول رؤسائه. كانت فترة نشاطه بين سنتي 1130 و1145 ميلادية، اشترك خلالها في عدة مجامع كنسية ومدنية. وبتشجيع من البابا يوجينيوس الثالث Eugenius III (1145 - 1153)، ولويس السابع ملك فرنسا روّج برنارد للحملة الصليبية الثانية (1147 - 1149) التي =

منقذ، وكان يؤمن بالمعجزات الشفائية، لذلك حَرّم على رهبانه الذين يداهمهم المرض، أن يتناولوا أي نوع من أنواع الأدوية، أو أن يتّصلوا بالأطباء لأنه يجدر بهم حسب رأيه أن يموتوا دون أن تعبث بهم العقاقير[1] .

ولم تكن هذه المعتقدات نابعة من برنار وأمثاله، بل كانت متأصلة في الوعي الديني آنذاك، ومشفوعة بقرارات كنسيّة مستندة إلى تفسيرات من قبل رجال الدِّين. فقد كانوا يستندون إلى نصوص الأناجيل، مثل إنجيل متّى الذي زعم فيه أن المسيح قال للحواريين « اشفوا مرضى، طهّروا برصا، أقيموا موتى، أخرجوا شياطين»[2] . كما كانوا يستندون إلى أقوال لآباء الكنيسة الأقدمين مثل طاطيان[3] الذي قال: إن علم العقاقير بأشكالها المختلفة يرجع في أصله إلى الفنّ الباطل الخادع القائم على المادة[4] . لقد كانت الكنيسة تعلم أن تعاطي العقاقير وممارسة الطب وإجراء العمليات الجراحية بالآلات أعمال تنافي تعاليمها.

= انتهت بالفشل. طوّبته كنيسة روما قديساً في سنة 1174 (bac-Encycl. Brit Micro dia Vol. 1 p. 1010).

(1) انظر زيغريد هونكه، شمس العرب، ص 222 - 223 .

(2) متى 10 : 8 .

(3) Tatien (120 - 173م).

(4) زيغريد هونكه ، شمس العرب ص219.

وترى أن عمل الطّبيب بيديه أمر مشين. وظلّ معمولاً بهذه المبادئ التي اختلقتها الكنيسة على مدى أجيال طويلة.

لقد كان من الأمور المعيبة أن يمارس عميد الطب مهنة يدوية، حتَّى جسّ النبض اعتبر أمراً دنيئاً مهيناً[1]، هذا في الوقت الذي كانت مهارة الطب الإسلامي تقوم أساساً على ماكان يُعرف في ذلك الوقت بالعلاج باليد، هذا العلاج الذي يُظهر خبرة الطّبيب ودرايته.

هكذا حرمت الكنيسة على رجالها تعاطي الأدوية وممارسة الجراحة، وقد نقل عن المؤرّخ الفرنجي غريغريوس أسقف تور[2]، وهو من علماء القرن السادس الميلادي قوله: « ماذا بوسع الأطباء أن يحققّوا بآلاتهم؟ إن وظيفتهم تسبب الآلام أكثر من العمل على تخفيف وطأتها. إنهم عندما يفتحون العين مثلاً، ويعملون فيها بمباضعهم الدقيقة الحادة، تجريحاً وتقطيعاً، فهم يدفعون بأهوال الموت قُدُمَاً قبل أن يُعينُوا العين على الإبصار ثانيةً، ثم إنهم إذا لم يأخذوا جميع احتياطاتهم بدّقة وحذر شديدين، ذهب البصر جميعه إلى الأبد. وأما طبيبنا الحبيب،

---

(1) المصدر نفسه ص 220.

(2) Gregoire de Tours (538 - 594). أسقف ومؤرخ فرنسي.

فليس عنده لكم إلا آلة معدنية واحدة هي إرادته، ومرهم واحد هو قوته الشفائية العجائبية»[1] .

لذلك وحسب تعاليم الكنيسة وجب على المرضى، وحتى الذين تنتابهم الحُمّى، دون رحمة أو شفقة، أن يمتنعوا عن تناول العقاقير الطبية قبل قبول سر الاعتراف. وعلى هذا أصدر المجمع الكنسي الذي عقد في سنة (895) ميلادية في مدينة نانت[2] بفرنسا قراراً يلزم كل كاهن بأن يعود كل مريض من رعيته، وأن يرشه بالماء المقدّس، ويشاركه الصلاة، ثم ينبغي له أن يقبل منه اعترافه في غياب ذويه ويحثّه على تصفية أموره الدِّينية والدُّنيوية معاً على أكمل وجه، وبناءً على هذا فليس ثمّة علاج بدون اعتراف[3] .

وأصبح هذا القرار تقليداً شائعاً جعل منه البابا أنوسنت الثالث[4] فيما بعد واجباً مُحَتَّماً على كل فرد، مهدداً بذلك الطّبيب بحرمانه من الكنيسة إن هو عالج مريضاً لم يعترف من قبل، وإذا حدث أن رفض المريض أن يتقدم للاعتراف، ورفض بالتالي الطبيب النصراني أن يعالجه عملاً بتعاليم الكنيسة، فاضطر

(1) زيغريد هونكه المرجع السابق ص220 - 221.

(2) Nantes ميناء غرب فرنسا يصله بالأطلسي خليج.

(3) زيغريد هونكه المرجع السابق ص 220 - 221.

(4) Innocent III (بابا 1198 - 1216)، مات بسبب مرض خطير ألمّ به.

هذا المريض إلى أن يلجأ إلى طبيب آخر مسلم، فإن الكنيسة كانت تنزل عليه الحُرْمَ الكَنَسي. ويظلّ المريض على هذه الحالة بلا علاج.

كتب برنار دي كليرفو في إحدى رسائله. « لجأ إليّ ذاتَ يوم راهبٌ فرّ من ديره وأمارات الاستغراب والتعجب الشديدة بادية عليه لأن رئيسه قد طلب منه أن يعالج الطُّغَاة واللّصوص وحتّى المحرومين من الكنيسة أيضاً[1] وهذا بطبيعة الحال يتنافى مع المبادئ الإنسانية، ويرفضه أي طبيب مسلم، بل وأي طبيب يلتزم بأخلاق مهنة الطب.

لقد كان الرجال المثخنون بالجروح النازفة ينتظرون في صفوف مدة طويلة، استعداداً للتقرب من سرّ الاعتراف، وللإقرار بخطاياهم، وتناول خبز القربان قبل أن يسعفوا إسعافاً أولياً. كان هذا المشهد يحدث في مستشفى آسّسه أحد فرسان (القديس) يُوحنا في القدس[2].

وعلى الرغم من مواقف الكنيسة هذه، فقد كان تقدير الصّليبيين لأطباء مصر والشام كبيراً، وخير مثل على هذا ماحدث

---

(1) زيغريد هونكه، « شمس العرب » ص 223 - 224.

(2) المرجع نفسه ص 224، 225.

عندما أُصيب بودوان بن عَمّوري ملك بيت المقدس بالجذام، فقد استقدم عَمّوري طبيباً من الديار المصرية هو داود بن أبي المُنى[1] لمعالجة ابنه[2] . لقد علّل ستيفن رانسيمان إقبال الصليبيين هذا بأن الأمراض التي أصيبوا بها في الشرق كانت غريبة على أطبائهم[3] . وهذا التعليل تعوزه الموضوعية. فقد وضح مماسبق أن أطباء الصّليبيين لم يكونوا على المستوى الذي يسمح لهم بمعالجة الأمراض على النحو المطلوب، فهو تعليل أقرب إلى التبرير. وكان الأمراء الصّليبيون يلجؤون إلى أطباء المسلمين عندما يصاب أحد منهم بمرض مما جعل وليم الصوري يقول بشيء من الأسى: « إن أمراءنا الشرقيين، تحت تأثير نسائهم، يزرون بالأدوية وبالوسائل الطبية اللاتينية ولايؤمنون إلا بالأطباء اليهود والسامريين والسوريين والعرب »[4] .

وكان بعض الطلاب الأوروبيين المحبين للمعرفة، يفدون إلى الشام لدراسة الطب في مدرسة طرابلس. وكانوا يبدؤون

---

(1) طبيب نصراني، فاضل في الصناعة الطبية، خبير بعلمها وعملها، متميز في العلوم. وكان من أهل القدس، ثم انتقل إلى الديار المصرية، وكانت له معرفة بالغة بأحكام النجوم (ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص 587).

(2) انظر ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ص 587 - 588.

(3) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ 2 ص 510 - 511.

(4) فيليب حتى، تاريخ لبنان ص389.

دراستهم بعد تعلمهم وإتقانهم اللغة العربية[1] . وكان هؤلاء الطلاب يمارسون الطب بعد عودتهم بالمستوى الرفيع الذي وصلوا إليه، وقد طلب بعضهم من البابا أنوسنت الثالث أن يعمل على إقامة عدد من المشافي، فبادر في سنة (1204 ميلادية) بإنشاء مستشفى في روما سَمّاه مستشفى الروح القدس[2] . وأعقب هذا إنشاء عدد من المستشفيات على غراره في مختلف أنحاء أوروبا، وقد وصل عدد هذه المستشفيات في القرن الثالث عشر الميلادي في ألمانيا وحدها إلى أكثر من مئة مستشفى. وفي فرنسا كثرت المستشفيات التي تُعنى برعاية العجزة والفقراء. وفي عام (1260 ميلادية) أنشأ لويس التاسع في باريس ملجأ الثلاثمائة[3] ، وكان في بداية الأمر مأوى للمكفوفين، ثم أصبح مستشفى للرمد، والآن يعتبر من أهم المراكز الطّبية في باريس[4] . ومن المعروف أن الملك لويس كان قد قاد حملة إلى الشرق في عام (1249)[5] ، ولاشكّ أنه رأى في الشرق نماذج من المستشفيات فعمد على إقامة مثيل لها في بلاده. أما في انجلترا فقد أنشئ مستشفى (القديس)

---

(1) عمر عبد السلام تدمري « الحياة الثقافية » ص69.

(2) Spiritus Sanctus (Spirito Santo) .

(3) Quinz - Vingts .

(4) ول ديورانت، قصة الحضارة جـ 6 / 4 ص 196 .

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى جـ 1 ص447 .

بورثولميو[1] في لندن في سنة (1123) ميلادية، ويعتبر أقدم مستشفى في هذه البلاد. وفي عام (1215) أسس مستشفى (القديس) توماس[2] في لندن[3].

وإضافة إلى الطلاب الذين كانوا يفدون إلى الشرق للدراسة كان هناك أطباء يرافقون الحملات الحربية ويجدون في هذا فرصة للتزوّد من معارف الشرق، ولا سيما في مجال الطب من الناحيتين العلمية والعملية. وكان من هؤلاء جراح إيطالي يدعى هوج البولوني[4] قدم إلى الشرق في عام (1218) الميلادي ومكث ثلاث سنوات اطلع خلالها على طرق العلاج، واتصل بالأطباء ليكتسب الخبرة، وكم كانت دهشته عظيمة عندما رأى المستشفى العسكري المتنقل الذي يحمله أكثر من ثلاثين جملاً. وأثناء حصار دمياط تعرّف هوج على الطريقة التي يُضَمّد بها المصابون، فقد تعلّم كيف تُلَفُّ الجروح بخرق نظيفة ساخنة مبلولة بالخمر ثم تترك مدة أسبوع حتى تندمل[5].

وقد أبدى هوج إعجابه بصفة خاصة بطريقة التخدير التي كان يتبعها الأطباء المسلمون قبل إجراء العمليات، وكان الأطباء

---

(1) St. Bartholomew.

(2) St. Thomas.

(3) جوزيف جارلند «قصة الطب» ص 75.

(4) Hugues de Bologne.

(5) زيغريد هونكه، شمس العرب، ص 300 - 301.

المصريون يستعملون نبات الخشخاش والشوكران[1] لتخدير المرضى. ورأى عملية تجبير الكسور التي تتم بطرق علمية لا تستخدم فيها آلات التعليب التي كانت متبعة في أوروبا. وعندما عاد هوج إلى أوروبا في عام (1221) اهتم بنشر هذه الطرق والأساليب. وقد ترك بعد وفاته مدرسة للجراحة في بولونيا، تولاّها ابنه ثيودريك[2]، الذي كان أبوه قد أوصاه بالاهتمام بتضميد الجروح على نحو ما تعلمه من العرب، واتباع طريقتهم في التخدير. وقد أثبت ثيودريك أنه خير خلف لأبيه فقد زاول مهنة الطب وألّف كتاباً في الجراحة[3] ضمنّه تعاليم أبيه الطبية وبخاصة في هذا الحقل[4].

كانت الكنيسة قد حَرَّمَت ممارسة الجراحة بموجب مرسوم صدر في سنة (1163) ميلادية. ولكن بعد أن أخذت الكتب الطبية المترجمة عن العربية تنتشر في أوروبا وتأسست عدة مراكز طبية على غرار مراكز الشرق، بدأ الاهتمام بالجراحة[5]. وقد جاء في

---

(1) جاء في الترجمة العربية لكتاب زيغريد هونكه «شمس العرب تسطع على الغرب» «الحشيش والسكران» ويفضل أن يكتبا «الخشخاش والشوكران» (انظر ابن سيناء، القانون في الطب، الكتاب الثاني في الأدوية المفردة جـ 1 ص 436، 451).

(2) Theoderich.

(3) زيغريد هونكه «شمس العرب» ص 300 - 302.

(4) مونتغمري واط «أثر الحضارة» ص 134.

(5) Charels d'Anjou (1226 - 1285)، ملك صقلية (1266 - 1285)، ملك بيت المقدس (سنة 1227 م).

سجلاّت شارل دانجو[1] ملك صقلية ذكر لكثير من المؤلفات اللاتينية المترجمة عن اللغة العربية. وقد رافق شارل أخاه لويس التاسع ملك فرنسا في حملته على مصر، وتسنى له الاتصال بالعلماء العرب، وقد عرف عنه أنه أسس مدرسة للترجمة[2].

هذا وقد تمت في الشرق ترجمة بعض الكتب العربية إلى اللاتينية، ومن أشهر هذه الترجمات ترجمة كتاب «الملكي كامل الصناعة الطبية» الذي ألّفه علي بن عبّاس المجوسي[3]، وهذه الترجمة قام بها ستيفن الأنطاكي أثناء وجوده في أنطاكية في سنة (1127) ميلادية وسَمّاه «الكتاب الملكي»[4]، وهو العنوان الذي عرف به الكتاب في أوروبا[5]. والواقع أن هذه الترجمة إعادة للترجمة التي قام بها قسطنطين الإفريقي في دير مونتي كاسينو[6] في إيطاليا في القرن الحادي عشر الميلادي، وقام

---

(1) جلال مظهر «أثر العرب» ص 188.

(2) Leber Regius.

(3) عالم وطبيب، فارسي الأصل من الأهواز، تتلمذ على يد موسى بن يوسف بن سيار المتوفى في سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، كان متصلاً بعضد الدولة بن بويه، توفي حوالي سنة أربعمئة (خير الدين الزركلي، الأعلام جـ 4 ص 297).

(4) انظر ماكس ما يرهوف «العلوم والطب» ص 499 - 500.

(5) Constantinus Africanus (1020 - 1087)، وقد ترجم هذا الكتاب تحت إسم Liber Pantegni.

(6) Monte Cassino، وهذا الدير أقامه القديس.

قسطنطين بتدريس هذا الكتاب في ترجمته اللاتينية بالجامعة الطّبية في سالرنو التي تخرج منها. وقد قَوَّى الأثر العربي في هذه الجامعة أيضاً المعلومات الطبية التي كان الصّليبيون العائدون من الشرق يحملونها معهم[1]، فكانت إلى جانب الكتب العربية رافداً من روافد التعليم الطّبي في جامعة سالرنو وظلَّت المقالتان الأولى والثالثة مرجعاً لطلاب هذه الجامعة في علم التشريح مدة قرن من الزمان[2].

وعلى الرغم من أن جامعة سالرنو كانت قد اتبعت منهجاً خاصاً في تدريس الطب عرف بالمنهج السالرني، ذلك المنهج الذي ما زال موضع البحث، إلاّ أنها جعلت كتاب «الملكي» كتاباً أساسياً في برنامج الدراسة على أسس سليمة. فهذا الكتاب الذي يقع في جزءين من عشرين مقالة، كان فتحاً جديداً في عالم الطب الأوروبي، لأنه أضاف كثيراً إلى الطب الأبقراطي والجاليني[3].

هذا الكتاب ألّفه علي بن عبَّاس للملك عضد الدولة ابن بويه، ولذلك سَمَّاه «الملكي». وهو يتحدث في وصايا أبقراط وغيره من

---

(1) أمين سعد خيرا، الطب العربي، ص 207.

(2) عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم، ص 230؛

. Encyc. Brit. Micropaedia Vol.3.P.102.

(3) علي الغمراوي، الأصول المعجمية، ص 32-33.

قدماء المتطببين، والأعضاء المتشابهة، والأعضاء المركبة والقوى والأفعال والأرواح، والأمور التي ليست بطبيعية، والأمور الخارجة عن الأمر الطبيعي، ومعرفة الدلائل العامة على الأمراض والعلل، والاستدلال على الأمراض الظاهرة للحس وأسبابها، وعلاماتها، وحفظ الصحة، ومداواة الأمراض بالأدوية المفردة، ومداواة الحميات والأورام، والعلل والأعراض العارضة في سطح البدن، وأمراض الرأس، ومداواة العلل العارضة في آلات التنفس، ومداواة العلل العارضة في آلات الغذاء، ومداواة العلل العارضة لآلات التناسل والمفاصل، وعلاج الأمراض التي تكون باليد، والأدوية المركبة.

ويشير علي بن عَبَّاس في مقدمة كتابه إلى أوجه النقص في كتب القدماء والمُحْدَثِينَ، والدافع إلى تصنيف كتاب كامل في الصناعة الطبية فيقول: «ولما كان العلم بصناعة الطب أفضل العلوم وأعظمها قدراً وأجلها خطراً وأكثرها منفعة لحاجة جميع الناس إليها، أحببت أن أصنف لخزانته كتاباً كاملاً في صناعة الطّب، جامعاً لكل ما يحتاج إليه المتطببون وغيرهم من حفظ الصحة على الأصحاء وردّها على المرضى، إذ كنت لم أجد لأحد من القدماء والمحدثين من الأطباء كتاباً كاملاً يحوي جميع ما

يحتاج إليه من بلوغ غاية هذه الصناعة وأحكامها»[1] .

فأما أبقراط[2] الذي كان إمام هذه الصناعة وأول من دوَّنها في الكتب فقد وضع كتباً كثيرة في كل نوع من أنواع هذا العلم منها كتاب واحد جامع لكثير مما يحتاج إليه طالب هذه الصناعة ضرورة، وهذا الكتاب هو كتاب الفصول. وقد يسهل جمع هذه الكتب حتى تصير كتاباً واحداً حاوياً لجميع ما قد يحتاج إليه في بلوغ غاية هذه الصناعة، إلا أنه استعمل فيه وفي سائر كتبه الإيجاز حتى صارت معان كثيرة من كلامه غامضة ويحتاج القارئ لها إلى تفسير»[3] .

---

(1) علي بن عباس «كامل الصناعة» جـ 1 ص 3.

(2) Hippocrate عاش في القرن الخامس قبل الميلاد. ذكره ابن النديم في الفهرست (ص400) باسم بقراط بن ايراقليس. والحقيقة أنه على الرغم من شهرة أبقراط لا نعرف عنه غير معلومات قليلة، ولم يعثر حتى الآن على مؤلف واحد ثبت أن أبقراط كتبه وأملاه بنفسه. كل ما نعرفه من خلال هذه المعلومات القليلة التي وردت عند أفلاطون في محاورة بروطاغوراس Protagoras ومحاورة فيدروس Phaedros، وفي شذرات مينون Menon تلميذ أرسطو المدونة في بردية لندن للمجهول Londinensis Anonymus رقم 137 والتي نشرها دلز D. Diehls في برلين سنة 1893، وكذلك في مجموعة المؤلفات الأبقراطية التي كتبها تلاميذ أبقراط منذ أواخر القرن الخامس حتى منتصف القرن الرابع قبل الميلاد. وهذه المعلومات القليلة لا تعطينا صورة واضحة عن حياة أبقراط الشخصية، وكما قال سيجريست H. G. Sigerist في كتابه كبار الأطباء» Grosse Aertzte الذي نشره في ميونيج سنة 1938: «نكاد لا نعرف عن أبقراط غير أنه شخص كان له وجود حقيقي» (علي الغمراوي، الأصول المعجمية ص 38 حاشية 12).

(3) علي بن عباس «كامل الصناعة» جـ 1 ص 3.

«وأما جالينوس[1] المقدم المفضل في هذه الصناعة فإنه قد وضع كتباً كثيرة كل واحدٍ منها مفرد في نوع من أنواع هذا العلم، وطول الكلام فيه وكرّره لما احتاج إليه من الاستقصاء في الشرح وإقامة البراهين والردّ على من عاند الحقّ وسلك سبيل المغالطين، ولم أجد له كتاباً واحداً يصف فيه جميع ما يحتاج إليه في درك هذه الصناعة وبلوغ الغرض المقصود إليه منها للسبب الذي ذكرته آنفاً»[2] .

«وقد وضع أوريباسيوس[3] كتباً وفولس الأجنيطي[4] ورام

---

(1) كلوديوس جالينوس Claudius Galenus ولد في برجاموس بآسيا الصغرى في سنة 131 ميلادية، كان أبوه معمارياً مثقفاً، كان جالينوس متوقد الذكاء، مولعاً بالدراسة، مغرماً بالجدل، درس الطب في الاسكندرية وغيرها. ولما عاد إلى برجاموس عين جراحاً للمصارعين وعمره لا يتجاوز الثامنة والعشرين. ولما ذاع صيته استقدم إلى روما ونال بها شهرة واسعة مما أثار عليه حقد زملائه الأمر الذي جعله يعود إلى برجاموس في سنة 166 وفي عام 200 مات جالينوس مخلفاً آثاراً علمية قيمة.
(جوزيف جارلند، قصة العرب ص 60-62).

(2) علي بن عباس «كامل الصناعة» جـ1 ص 3.

(3) أوريباسيوس Oribasius طبيب عاش في القرن الرابع. من كتبه «كتاب تشريح الأحشاء» و «كتاب الأدوية المستعملة» (ابن النديم، الفهرست ص 407).

(4) Paulus Aegineta من أهالي جزيرة إيجينا Aegina في بلاد اليونان. عاش في القرن السابع ذكر في الكتب العربية أيضاً باسم فولس وفولوس (انظر د. علي الغمراوي، الأصول المعجمية ص 39 حاشية 15)، كان خبيراً بأمراض النساء، وكانت القوابل يأتينه ويسألنه عن الأمور التي تحدث للنساء بعد الولادة فيخبرهن بما يجب أن يفعلنه ولذلك سموه بالقوابلي (انظر ابن العبري، تاريخ مختصر الدول ص 103).

كل واحد منهما أن يُبَيِّن في كتابه جميع ما يحتاج إليه، فوجدت أوريباسيوس قد قصر في كتابه الصغير الذي وضعه لأبيه أونافس[1] وإلى عوام الناس فلم يذكر شيئاً من الأمور الطبيعية وقصّر في الأسباب. وكذلك في الكتاب الذي وضعه لابنه أسطاث[2] في تسع مقالات فإنه لم يذكر فيه شيئاً من الأمور الطبيعية التي هي الاستقصاءات من الأمزجة والأخلاط والأعضاء والقوى والأفعال والأرواح إلاّ اليسير ولم يذكر في هذين الكتابين شيئاً من العمل باليد. فأما كتابه الكبير الذي وضعه في سبعين مقالة فلم أجد فيه إلا مقالة واحدة فيها ذكر تشريح الأعضاء»[3] .

«وأما فولس فلم يذكر في كتابه[4] من الأمور الطبيعية إلاّ اليسير، وأما أمر الأسباب والعلامات وسائر أنواع المداواة والعلاج باليد فقد بالغ في بيانه، إلاّ أنه لم يذكر ما ذكره في كتابه على طريق من طرق التعاليم. وأما المُحْدَثُونَ فلم أجد لأحد منهم كتاباً يصف فيه جميع ما يحتاج إليه من ذلك إلاّ أن هارون[5]

---

(1) أونافس Eunapius .

(2) Eustathius .

(3) علي بن عباس، كامل الصناعة، جـ 1 ص 3 - 4.

(4) يقصد علي بن عباس «كتاب الكناش في الطب» (انظر ابن النديم، الفهرست ص 407).

(5) يرجح أنه أبو النصر هارون بن صاعد بن هارون الصابي طبيب صابئة بغداد كان مقدم الأطباء في البيمارستان العضدي، مات سنة أربع وأربعين وأربعمائة (انظر خير الدين الزركلي جـ 8 ص 61).

وضع كتاباً ذكر فيه جميع ما يُحْتَاجُ إليه في مداواة الأمراض والعلل وأسبابها وعلاماتها، وما سوى ذلك فذكره على جهة الإيجاز من غير شرح واضح، ومع ذلك فإن ترجمته سيئةٌ رديئة تُعَمّي على القارئ كثيراً من المعاني التي قصد شرحها لا سيما من لم ينظر في ترجمة حُنَين[1] وأشباهه[2] ».

«وأما أنا فإني أذكر في كتابي هذا جميع ما يحتاج إليه من حفظ الصحة ومداواة الأمراض والعلل وطبائعها وأسبابها، والأعراض التابعة لها، والعلامات الدالة عليها، مما لا يستغني الطبيب الماهر عن معرفته، وأذكر في أمر المداواة والعلاج والتدبير بالأدوية والأغذية ما قد وقعت عليه التجارب واختارته القدماء مما قد صحت منفعته وامتحانه، واطرحت ما سوى ذلك، واستشهدت في كثير من المواضع بقول أبقراط وجالينوس المقدمين في هذه الصناعة لا سيما القوانين والدستورات في الأصول التي يستعملها

---

(1) أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي. ولد في سنة أربع وتسعين ومائة طبيب ومؤرخ ومترجم. كان أبوه صيدلانياً من أهل الحيرة، أخذ حنين علوم العربية عن الخليل بن أحمد في البصرة. انتقل إلى بغداد وتعلم الطب على يد يوحنا بن ماسويه وغيره، أتقن اللغات اليونانية والسريانية والفارسية فصارت إليه رياسة العلم بها بين المترجمين، كان شاعراً فصيح العبارة، جعله المأمون رئيساً لديوان الترجمة، لخص عدداً من كتب أبقراط وجالينوس. من كتبه «المسائل في العين» و «المدخل إلى علم الروحانيات» توفي في سنة ستين ومائتين (خير الدين الزركلي جـ2 ص 287).

(2) علي بن عباس «كامل الصناعة» جـ 1 ص 3 - 4.

أصحاب القياس وعليها مبنى الأمر في حفظ الصحة ومداواة الأمراض[1].

وقد تحدث ابن العبري في كتابه «تاريخ مختصر الدول» عن كتاب علي بن عباس فقال:

«هو كتاب جليل، وكناش نبيل. مال الناس إليه في وقته ولزموا درسه إلى أن ظهر «كتاب القانون» لابن سينا[2] فمالوا إليه وتركوا «الملكي» بعض الترك. «والملكي» في العمل أبلغ، «والقانون» في العلم أثبت»[3]. لقد كان كتاب «كامل الصناعة الطبية» ذا قيمة علمية، وكان رجال الحسبة الذين يقومون بالجولات على الصيادلة يشترطون على الشرابي وهو الذي يحضر العقاقير الطبية أن يعتمد المقادير المعتبرة في كتب الطب المشهورة ومنها كتاب علي بن عبَّاس[4].

ولا شكّ أن انتشار هذا الكتاب وغيره من الآثار العربية في أوروبا أدى إلى تطور الطب الأوروبي. وقد تُرْجِمَ في أوروبا من

---

(1) المصدر نفسه.

(2) الحسين بن عبد الله بن سينا، الفيلسوف الرئيس، ولد في إحدى قرى بخارى في سنة سبعين وثلاثمائة. له مؤلفات في الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات، تنقل في البلدان وناظر العلماء. وتقلد الوزارة في همذان ولما ثار عليه عسكرها تركها إلى أصفهان التي كتب فيها معظم مؤلفاته وفي طريق عودته إلى همذان مرض وتوفي فيها في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة. (خير الدين الزركلي، الأعلام جـ 1 ص142 – 242.

(3) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص 175.

(4) الشيزري، نهاية الرتبة، ص 56.

العربية إلى اللاتينية أكثر من ثلاثمائة كتاب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين، وهذا العدد كبير بالنسبة لهذه الفترة، لقد بدأت الصحوة الأوروبية في هذين القرنين بعد أن عرف الأوروبيون الحضارة الإسلامية عن كثب، فأرادوا أن يصنعوا في أوروبا حضارة لهم، مستفيدين من الأفكار والنظريات التي انتهى إليها العلماء المسلمون، فواصلوا المسيرة العلمية حتّى استطاعو أن يشيّدوا صرح الحضارة الحديثة[1] .



(1) جلال مظهر، أثر العرب، ص 192.

الفصل الرابع

الأثر العقدي

نقاط الفصل

نظرة الصليبيين إلى الإسلام والمسلمين - تأثر الصليبيين بالمسلمين - إجراءات الكنيسة - موقف العائدين إلى أوروبا - البابوية والملوك الأوربيون - المبادئ الحرّة - العهد الأعظم - الصليبيون والإسماعيلية - لويس التاسع - بركارد - الماسونية - الكنيسة والمذاهب الجديدة - الوالدونسيون - البتريائيون - الكاثاري - موقف البابوية من الفرق الجديدة - بداية التنصير في الشرق.

* * *

في هذا الفصل نُحاول أن نلقي بعض الضوء على تأثر الصّليبيين بمعتقدات المسلمين. ونعني بالآثار العقدية الأمور التي طرأت على عقيدة المجتمع الأوروبي سواء في نظرته تجاه الله جلّ جلاله، وتجاه الكون والمسيح عليه السلام، أو في موقفه من البابا والكنيسة. وبطبيعة الحال لا يمكن أن يتطرق إلى أذهاننا أن النصارى أخذوا من أصول الدِّين الإسلامي، فهم لم يأخذوا عن رسالة المسيح نفسها وإنما حَرَّفوها، فما بالنا برسالة محمد ﷺ، كل ما نهدف إليه في هذا الفصل هو تبيان الأثر الإسلامي على نمط الحياة الأوروبية والفكر الأوروبي بصورة عامة، والفكر الدّيني على وجه الخصوص، سواء على الصَّليبيين الذين عاشوا في الشرق، أو على أقرانهم من الأوروبيين الذين عرفوا منهم ومن العائدين مبادئ الإسلام وطبيعة الحياة الإسلامية.

لا شكّ في أن الأوربيين الذين قدموا إلى الشرق حديثاً في صفوف الجيوش الصليبية، كانوا يكرهون المسلمين لأنهم نصارى عرفت الكنيسة كيف تلعب بعقولهم، وتوغر صدورهم ضد الإسلام وأهله. ولا غرو فقد ضلّلتهم الكنيسة وأذاعت عليهم أنهم ذاهبون لتحرير القدس والقبر المقدس من أيدي المسلمين، يباركهم الرَّبّ والبابا، فجاؤوا وقد دبّ في قلوبهم الحقد والبغضاء. لذلك لم يردعهم رادعٌ عن ذبحٍ أو تقتيلٍ بل كان قتل

المسلم مرضاة ينالون عليها ثواباً يوم الدينونة. هكذا علّمتهم الكنيسة. وفضلاً عن ذلك تعمد بعض الصّليبيين القادمين إثارة المشاعر الدينية لدى المسلمين. يذكر أُسامة بن منقذ أنه وهو بصحبة معين الدين أُنُر في القدس جاء صليبي إلى معين الدّين وقال له: هل تريد أن ترى الله في صورة مصغّرة، فقال: نعم. فمشى به إلى صورة لمريم وفي حضنها المسيح وقال: هذا هو الله[1]، تعالى الله عما يشركون.

ومع مرور الوقت وتعايش الصّليبيين مع المسلمين خَفّت حدة تعصبهم لما رأوه لدى المسلمين من تسامح بين مذاهبهم من جهة وبينهم وبين نصارى الشرق من جهة أخرى.

ويسوق لنا أُسامة بن منقذ مشهداً يجمع بين صليبي حديث العهد بالشرق وآخرين عاشوا زمناً بين المسلمين فيذكر أنه كان يصلي في أحد مساجد القدس وحوله أصدقاء له من الداوية[2]

---

(1) ابن منقذ «الاعتبار» ص 135.

(2) الداوية أو الهيكليون Templiers يعرفون بفرسان المسيح وهيكل سليمان الفقراء. وهم أخوية دينية أسسها في القدس في أواخر سنة 1 ميلادية هوج دي باين Hugues de payens (1136-1070) مع رهط من الفرسان الفرنسيين لحماية الحجاج النصاري وقد سمح لهم بودوان الثاني Budouin II (1181-1130) بالإقامة في مكان ملحق بالقصر الملكي في المنطقة التي كان بها هيكل سليمان ولذلك عرفه بالهيكليين. وفي عام 1128 استطاع هوج أن يحصل على اعتراف بأخويته العسكرية من البابا هونوريوس الثاني Honorius II (1124-1130). وكثر أعداد هذه الفئة بسبب الكتاب الدعائي الذي ألفه برنار دي كليرفو في سنة=

فاقترب منه صليبي غريب وحاول صرفه نحو الشرق حسب ما يفعله النصارى في الصلاة، إلا أن أصدقاء أسامة طردوا هذا الرجل واعتذروا له[1] هذا الغريب جاء بعقلية متعصبة فلم يكن بوسعه أن يتحمل مشهد رجل لا يتجه في صلاته إلى الشرق. ولكن أصدقاء أُسامة الذين كان لهم معرفة بالإسلام والمسلمين طردوا هذا الرجل واعتذروا من تصرفه المشين.

كان أوائل الصّليبيين الذين قدموا إلى الشرق، يحملون صوراً مشوّهة عن الإسلام والمسلمين، فالإسلام في تصوّرهم كفرٌ يدعو إلى الإباحية، والمسلمون كُفّار يعبدون محمداً الذي هو في نظرهم ساحر أو شيطان[2] . ومنهم من وصل إلى الضلال إلى حد تحريف اسم محمد ﷺ إلى موهاوند[3] وهي لفظة تعني شيطان

= 1130 بعنوان إطراء المليشيا تمثل قوة عسكرية يعتمد عليها الجيش الصليبي في محاربة المسلمين. وقد أثرت هذه الجماعة ثراء كبيراً، وأصبح لها أملاك كثيرة في أوروبا وبخاصة في فرنسا. وقد خشي الملك فيليب الرابع Philippe IV le Bel (1268-1314) من نفوذهم وسطوتهم فسعى إلى تدميرهم واتهمهم باللواط وقد تم القضاء عليهم في الثاني والعشرين من من شهر مارس سنة 1312 في عهد البابا كلمنت الخامس Clement V وبعد ذلك بسنتين أمر البابا بإحراق زعيمهم جاك دي موليه Jácques de Molay .

(1) ابن منقذ، الاعتبار، ص 134-135.

(2) مونتغمري واط، أثر الحضارة العربية، ص 144.

(3) Mohound .

في لغة اسكتلندا[1] ولكن هذه الصورة المشوهة عن الإسلام سرعان ما تغيّرت بعد أن طالت إقامة الصّليبيين بين المسلمين، فأصبحت لديهم معلومات عامة عن الإسلام. حدث أن أرسل فريدريش الأول بربروساً[2] في سنة (1175) ميلادية رجلاً يدعى بركارد[3] مبعوثاً إلى صلاح الدّين، وأثناء القيام بمهمته استطاع أن يتعرف على معتقدات المسلمين، وطريقة حياتهم فأعجب بها أيما إعجاب، فلما عاد إلى قومه قال لهم: إن المسلمين يؤمنون بإله واحد هو خالق كل شيء، وأن نبيهم محمداً هو رسول الله. وحكى لهم عن الحرية الدينية التي يتمتع بها المسلمون، والتي لا يجد مثيلاً لها في المجتمع الأوروبي[4].

وكانت العملة الصّليبية تحمل نقوشاً عربية وبعض آيات من القرآن، إلى جانب التاريخ الهجري، وقد ظلّ التعامل بها إلى سنة (1249) ميلادية، ففي هذه السنة أصدر البابا إنوسنت الرابع[5] قراراً بالحرمان على كل من يتعامل بهذه العملة، ولكن التجار تحايلوا على هذا الحظر فسكوا عملة جديدة مشابهة تحمل نقوشاً

---

(1) انظر مونتغمري واط، المرجع السابق ص 144.

(2) Friedrich Barbarossa (1152-1190). امبراطور ألمانيا.

(3) Burkard.

(4) جمال الدين الشيّال، التاريخ الإسلامي ص 67.

(5) Innocenet IV (1243-1254).

نصرانية وتاريخاً ميلادياً باللغة العربية[1] . وهذا يدلّ على أن ظروف الحياة خفّفت من حدة تعصب الصّليبيين، وفتحت عيونهم على حضارة راقية جديرة بالاهتمام، إلى جانب الظروف الاقتصادية التي فرضت عليهم التعامل مع التجار المسلمين حفظاً لمصالحهم.

وأصبح من المألوف لدى الصّليبيين رؤية المسلمين وهم يؤدون الصلاة ويرتلون القرآن، وكان أسراهم الذين يمكثون في المعتقلات الإسلامية زمناً طويلاً، يشاهدون حُرّاسهم وهم يصلون، مما يثير تساؤل بعضهم عن الإسلام الأمر الذي جعل أفراداً منهم يقبلون على تعلم اللغة العربية بغية التعرّف على هذا الدّين. وربما أدى بهم ذلك إلى الإسلام[2] .

وكانت المزارات النصرانية في فلسطين مكاناً يلتقي فيه المسلمون بالصّليبيين مما بعث روح التسامح بين الفريقين. فالمسلمون يؤمنون برسالة عيسى عليه السلام. ويحترمون أُمّه. وفي القرآن الكريم سورة مريم تتحدث آياتها عن هذه الصِّدِّيقة ومعاناتها وعفافها. ولا شكّ أن ذلك قد ترك في نفوس بعض الصّليبيين آثاراً طيبة تجاه المسلمين[3] .

(1) محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، ص 144-145.
(2) انظر أمين الخولي، صلة الإسلام، ص 19-20.
(3) انظر أحمد رضا بك، الخيبة الأدبية، ص 216.

وكانت النساء الصّليبيات يُقَلِّدْنَ المسلمات في لبس الحجاب الذي يضفي على المرأة الحشمة والوقار[1] . وقد يكون هدفهن من هذا التقليد التميّز عن بقية الصّليبيات من الطبقة الفقيرة، وقد يكون إعجابهن بهذا الزِّيِّ وراء هذا التقليد. وأيّاً كان الأمر فإن ذلك يدلّ على سرعة تأثر نساء الصّليبيين بنساء المسلمين[2] .

ولا شك أن هذا أوجد تفاعلاً اجتماعياً بين الشرقيين والغربيين.

لقد كانت بعض بيوت الصّليبيين تضم خادمات مسلمات، فيحدثنا أُسامة بن منقذ أن فارساً صليبياً أقام له مأدبة ولما رأى الفارس أُسامة لم يمد يده أخبره أن الطعام خال من الخنزير وأن لديه طبّاخات مصريات[3] ونفهم من هذا أن الصّليبيين تأثروا أيضاً بموقف المسلمين من هذا الحيوان النجس الذي حرّم الله لحمه وشحمه على المؤمنين.

وفي الوقت الذي كان اختلاف الدين في أوروبا مدعاة للاضطهاد، كان المسلمون على اختلاف مذاهبهم يعيشون مع النصارى بسلام. وفي كنيسة القيامة كان النصارى من مذاهب

(1) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ 2 ص 509.

(2) المرجع نفسه جـ 2 ص 164.

(3) ابن منقذ، الاعتبار، ص 140.

شتّى يؤدون صلاتهم. بل إن هناك كنائس يجتمع فيها المسلمون والنصارى، كل يؤدي صلاته حسب شريعته. ولا شكّ أن هذا التآلف لفت أنظار النصارى الغربيين إلى ضرورة نبذ الخلافات المذهبية[1] وهذا أمر ترفضه الكنيسة التي شغلت عقول العامة بالتعصب الدّيني والتي كافحت بوسائلها الخاصة المفكّرين في أوروبا. وكانت الكنيسة قد اتخذت تدابير مشدّدة لحماية الحجّاج النصارى الذين يأتون إلى فلسطين، خوفاً عليهم من التأثيرات الإسلامية فوظفت لذلك منظمة الهيكليين. ولكن الكنيسة رغم السياج القوي الذي طوقت به المجتمع الصّليبي لم تسطع أن تمنع المؤثرات الإسلامية عنه. بل تسربت هذه المؤثرات إلى الهيكليين أنفسهم، وقد تحمّس بعضهم للإسلام وأبدوا إعجابهم بالنَّبي محمد ﷺ كما أُعجبوا بالمبادئ الإنسانية التي يتمتع بها المسلمون، ونظروا إلى صلاح الدِّين كمثل أعلى للبطل السامي الذي يتمسّك بهذه المبادئ[2]. ولما عاد أحد أعضاء هذه المنظمة إلى أوروبا أعلن على الملأ أن محمداً ليس زنديقاً ولكنه صاحب رسالة تدعو إلى التوحيد[3].

---

(1) جورج حداد، المدخل، ص479، جاك. س. كريسلر، الحضارة العربية، ص 131.

(2) أحمد رضا بك، المرجع السابق، ص 103.

(3) محمد جميل بيهم، قوافل العروبة، ص 151.

واكتشف العائدون إلى أوروبا حقيقة رجال الكنيسة الذي كانوا يدَّعون تمثيلهم لله ، وذلك من جراء اتصالهم بالمسلمين في الشرق. فقد رأوا أن المسلم يؤدي شعائره بلا وصاية وبدون وسيط. وقد حدث أن تجرأت جماعة عادت إلى أوربا وقالت: «لو اجتمع البابوات والكرادلة من أولهم إلى آخرهم على أن يضعوا عن مخلوق ذنباً واحداً ما قدروا بل الله يغفر الذنوب»[1] .

وهم بذلك يدعون إلى الانعتاق من هيمنة رجال الكنيسة، وإلغاء الأدوار التي يقومون بها كتمثيل المسيح وإصدار صكوك الغُفْرَان، ومعنى هذا القضاء على موارد مهمّة يرتزق منها الكنسيون. فلا غرو أن يقابل مثل هؤلاء الأفراد الذين يتطلعون إلى الحرية بوسائل القمع والإرهاب.

وكانت البابوية مهيمنة على ملوك أوروبا وقادتها، وكثيراً ما كان بعض الملوك يتمنون التحرّر من تبعية البابا. ومن هؤلاء الإمبراطور فريدريك الثاني الذي كان يمقت السيطرة البابوية، وفي أثناء إقامته في عكا سأل مرافقة الأمير فخر الدِّين[2] عن أصل الخليفة العباسي فقال له: «هو ابن عَمّ نبينا ﷺ أخذ الخلافة عن

(1) قاسم السامرائي، أصول الماسونية، ص 7.
(2) يوسف ابن الشيخ صدر الدِّين أبو الحسن بن عمر بن حَمُّويه، كان مُقَرّباً إلى الملك الكامل، أبوه شيخ الشيوخ في مصر والشام، من بيت فارسي أصله من خراسان (ابن واصل مفرّج الكروب جـ 4 ص 91).

أبيه، وأخذها أبوه عن أبيه فالخلافة مستمرة في بيت النبوة لا تخرج منهم». فقال الإمبراطور: «ما أحسن هذا، لكن هؤلاء قليلو العقول - يعني الفرنج - يأخذون رجلاً من المزبلة ليس بينه وبين المسيح نسبة ولا سبب، جاهلاً قَدماً [أحمق] يجعلونه خليفة عليهم، قائماً مقام المسيح فيهم، وأنتم خليفتكم ابن عمّ نبيكم فهو أحقّ الناس بمرتبته»[1].

وكثيراً ما كان البابا يتدخل في شؤون الملك الخاصة، وقد حدث أن ملك فرنسا فيليب الثاني أغسطس[2] طلق زوجته الدانمركية إسامبور، وتزوج آنيي الميرانية، فأصدر البابا سلستين الثالث[3] قرار الحرمان ضده عام 1220م. إلاّ أن الملك لم يمتثل للبابا وأعلن عصيانه، وقال: «ما أسعد صلاح الدِّين الذي ليس فوقه بابا»، وهدّد باعتناق الإسلام[4]. لقد تمنى ملوك أوروبا أن يكونوا كملوك المسلمين يحكمون بحرية مطلقة، وبدون توجيه من زعيم ديني، لأن الإسلام دين ودنيا، ولأن الحاكم المسلم يحكم بشرع الله.

---

(1) ابن واصل «مفرج الكروب» جـ 4 ص 251.

(2) Philippe II Auguste، ملك فرنسا (1180-1223) وزوجتاه: Isamour الدانمركية، و Agnès de Méran.

(3) Celestine II (1191-1198).

(4) ول ديورانت «قصة الحضارة» جـ 4 / 4 ص 226.

لقد أدركت الشعوب الأوروبية بعد أن توالت الهزائم على الصّليبيين في حطين (583 هـ - 1187 م) وما بعدها، أن البابا لا يمثل الله فهو كعامة الناس يخطئ ويصيب. وهذه النظرة الجديدة تعتبر تطوراً مهمّاً في العلاقة بين البابا والناس، فقد بدأت الثقة برجال الكنيسة تتلاشى، وعندما دعا بعض الرُّهْبَان إلى حملة صليبية جديدة، سخر منهم الناس وعمد بعضهم إلى توزيع الصدقات على الفقراء باسم محمد ﷺ وقالوا: إن محمداً تفوق على المسيح. وهذا الموقف يدلّ على أن الشعوب الأوروبية كانت تتطلع إلى وضع جديد يهيء لهم الحرية الدينية[1] .

كان الصّليبيون العائدون إلى أوروبا يحدّثون إخوانهم عن الحياة الشرقية بحديث ملؤه الإعجاب، مما يجعلهم يتطلعون إلى حياة جديدة تسودها المبادئ الحرة، كما ساهمت الكتب التي ألّفها بعض الصّليبيين في صحوة المجتمع الأوروبي ومن هذه المؤلفات كتاب «حالة الشرقيين» الذي ألّفه وليم الطرابلسي، تحدث فيه عن محمد ﷺ ، ودرس سور القرآن الكريم، وذكر أن المسلمين يعبدون الله باعتباره خالق كل شيء، ويحترمون عيسى عليه السلام بصفته نبياً من الأنبياء[2] .

---

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ 4 / 4 ص 67.

(2) عبد السلام تدمري، الحياة الثقافية، ص 72-73 .

لقد أدّى شيوع التأثيرات الإسلامية سواء عن طريق العائدين من الشرق أو عن طريق الكتب المؤلفة عن المسلمين، أدى إلى معرفة الأوروبيين لمفهوم الإسلام وواقع المسلمين، فعرفوا أن الإسلام دين يدعو إلى عبادة الله وحده وإلى تحرير الشعوب من عبودية الإنسان، سواء كان إمبراطوراً أو بابا، فلا واسطة بين الله وعبده، وبدأ الناس يشعرون بضرورة تحسين الأوضاع في أوروبا، ويترقبون ظهور مصلحين يضعون أسساً حضارية جديدة تبنى عليها النهضة الأوروبية.

ولما عاد ريتشارد قلب الأسد إلى انجلترا بعد أن قاد الحملة الصّليبية الثالثة إلى الشرق في سنة (1192) ميلادية. طلب منه مرافقوه الذين بهرتهم حضارة الشرق أن يسعى إلى تطوير البلاد لتواكب المدن الشرقية. وبدأ الإنجليز يطالبون بحياة سياسية تضمن لهم حريّاتهم[1]. وفي عام (1215) قامت في انجلترا ثورة شعبية تطالب الملك حنا الأول[2] بوضع دستور للبلاد، وبعد أن استفحل أمر الثوار واحتلوا لندن، اضطر الملك إلى التوقيع على العهد الأعظم في الخامس عشر من يونيو من العام نفسه. وهذا العهد يتكون من ثلاث وستين مادة تنقسم إلى أربع مجموعات. المجموعة الأولى تشتمل على مادة واحدة حددت العلاقة بين

---

(1) أحمد رضا بك، الخيبة الأدبية، ص 212.

(2) John I (1199-1216).

الكنيسة والدولة. المجموعة الثانية تتكون من خمسة عشر فصلاً تناولت العلاقات الإقطاعية بين الملك وأتباعه. المجموعة الثالثة تتألف من خمسة وثلاثين فصلاً ضمّنت الإجراءات الحكومية الملكية التي تتبع في الفصل في القضايا المدنية بين الملك ورعاياه. وفي المجموعة الرابعة أقرَّت حقوق البارونات كاملة وأشير فيها إلى تعيين لجنة من خمسة وعشرين باروناً لمراقبة تنفيذ مواد هذه الوثيقة[1].

وقد تعهد الملك جون أن يمنح جميع الأحرار في مملكته كامل حرياتهم، وأن لا يقبض على رجل حر، أو يسجن، أو ينزع ملكه، أو يخرج من حماية القانون، أو ينفي، أو يؤذي بأي نوع من الإيذاء إلاّ بناءً على محاكمة علنية بموجب القانون. ويعتبر هذا العهد أشهر وثيقة في التاريخ الإنجليزي، كما أنه أساس الحريات التي يتمتع بها الإنجليز اليوم. وعلى الرغم من أن هذه الوثيقة ضمنت حقوق رجال الدِّين إلاّ أن البابا أنوسنت الثالث وصفها بأنها باطلة وأمر جون بإلغائها[2] ويبدو أن البابا اعتبر العهد الأعظم سابقة خطيرة تهدد مركزه، لأن هذا العهد نبع أساساً من رغبة الشعب الإنجليزي ولم يصدر بقرار بابوي. وهذا يمهد السبيل

---

(1) نظير حسان سعداوي، تاريخ انجلترا، ص 95.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ 4 / 4 ص 199-201.

إلى إلغاء تدخلات البابا في شؤون المُلك، وهذا ما تخشاه الكنيسة.

وامتدت المبادئ الحرة إلى صلب العقيدة النصرانية، وقام عدد من رجال الدين في أوروبا بانتقاد سابقيهم من القضاء والقدر، والتثليث معتمدين في نقدهم على أقوال العلماء المسلمين، وأنكر بعضهم طقس الأفخار ستيا[1] أي طقس القربان الذي تناول فيه النصراني خمراً وخبزاً تمثيلاً لما رواه كتبة الأناجيل عن عشاء المسيح الأخير مع الحواريين فيتجسد فيه المسيح ويتحد معه حسب اعتقاد النصارى.

الصليبيون والإسماعيلية:

نشأت بين الصّليبيين وإسماعيلية الشام[2] اتصالات عديدة،

---

(1) أحمد رضا بك، الخيبة الأدبية، ص 101.

(2) «الإسماعيلية» هي فرقة شيعية، سُمّيت بهذا الاسم لأنها وقفت بسلسلة الأئمة عند إسماعيل الابن الأكبر لجعفر الصادق وقد جعلوا الإمامة بعد جعفر لابنه إسماعيل الذي توفي في المدينة في سنة ثلاث وأربعين ومائة. وإسماعيلية الشام فرع من إسماعيلية فارس جاءوا إلى حلب في نهاية القرن الخامس الهجري أيام الأمير السلجوقي رضوان بن تتش، وقد ملكوا قلاعاً كثيرة في الشام أهمها الكهف، وقدموس، ومصياف وهم ينكرون صفات الله. ويقولون بأن الله لم يخلق الكون مباشرة بل خلق العقل الذي هو عندهم الإله ممثلاً في مظاهره الخارجية، ولا يمكن لأحد ـ حسب زعمهم ـ أن يصل إلى معرفة الله. وأركان الإسماعيلية ثلاثة: الإمام، والحجة وهو الذي يعهد إليه بالتدليل على صدق رسالة الأساس الذي هو=

فقد كان الإسماعيليون يحترفون اغتيال الزعماء المسلمين والصّليبيين على حدٍّ سواء. إلاّ أن الدّاوية والإسبتارية[1] لكونهما منظمتين عسكريتين لم يخضعا لتهديد الإسماعيلية بل فرض أعضاء الداوية والاسبتارية ضريبة عليهم، ولعل من الغريب أن يخضع الإسماعيليون لهاتين الجماعتين وهم الذين نشروا الإرهاب في الشام وقاموا باغتيال الزعماء على فرشهم، ولكنهم لا ينفذون عملية الإغتيال في أي زعيم إلاّ إذا تأكدوا من أن ذلك سيخضع لمطالبهم. والداوية والاسبتارية لا يؤثر فيهما موت زعيم من زعمائهما، وبالتالي فلا يمكن للإسماعيلية أن يستفيدوا من وراء الاغتيال، لذلك اضطروا إلى دفع إتاوة باهظة كانت تستنزف خزينتهم[2].

= علي، ثم الداعي، وعندهم أن الجنة هي حالة النفس التي حصلت العلم الكامل، والنار هي الجهالة ويؤمنون بتناسخ الأرواح.
انظر (دائرة المعارف الإسلامية، جـ 2 ص 187، 190-191، 193).

(1) Hospitaliers تأسست هذه المنظمة في القرن الحادي عشر الميلادي في مستشفى (القديس) يوحنا في القدس. وكانت مهمتها في بادئ الأمر علاج الحجاج النصارى القادمين من أوروبا وبعد استيلاء الصليبيين على القدس عام (1099) تطورت هذه الجماعة إلى منظمة عسكرية وكان القائم عليها فارس صليبي يدعى جيرارد Gerard وقد قام بإنشاء المشافي على طريق الحج، وبعد سقوط عكا عام 1291 انسحب الإسبتارين إلى قبرص ثم إلى رودس ومالطا،
(Encycl. Brit. Micropaedia. Vol. VP. 148).

(2) انظر جوانفيل، القديس لويس، ص 204-205.

لقد حاول الزعيم الإسماعيلي راشد الدِّين سنَان[1] أن يتخلص من ضريبة الداوية فأرسل في سنة تسع وستين وخمسمائة (وهي توافق 1173 ميلادية) وفداً إلى عَمّوري الأول ملك بيت المقدس يخبره أنه وطائفته على استعداد للدخول في النصرانية مقابل أن يقوم الملك بوضع الضريبة عنهم. ويبدو أن الملك سَرّه هذا العرض فوعدهم بإلغائها، إلاّ أن الداوية لا يهمهم التنصير مثل ما يهمهم جمع المال، لذلك اغتالوا رسل شيخ الجبل[2].

وفي سنة أربع وتسعين وخمسمائة (وهي توافق سنة 1197 ميلادية) قام شيخ الإسماعيلية الحسن بن راشد الدِّين بدعوة ملك القدس هنري كونت شامبانيا[3] الذي مرّ بالقرب من معاقل الإسماعيلية لزيارة قلعة مصياف[4]. وقد دهش هنري بما شاهده داخل القلعة، ورأى أحد أتباع شيخ الجبل وهو يلقي بنفسه من علو شاهق فيموت من أجل شيخه. وبعد هذه الجولة عاد الملك

---

(1) أبو الحسن راشد الدين سنان بن سليمان بن محمد، ولد بالقرب من البصرة وتلقى العلم في فارس، في سنة ثمان وخمسين وخمسمائة إختاره الإمام حسن الألموتي إماماً لإسماعيلية الشام وظل في هذه المرتبة إلى أن مات في سنة تسع وثمانين وخمسمائة. قام بتنظيم فرق الفدائيين الذين قاموا بأدوار الاغتيال (دائرة المعارف الإسلامية، جـ 9 ص 468-469).

(2) ستيفن رانسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، جـ 2 ص 641-642.

(3) Henry de Champagne (1192-1197). مات في عكا من جراء سقوطه من نافذة القصر.

(4) حصن مشهور للإسماعيلية على الساحل الشامي قرب طرابلس (ياقوت، معجم البلدان جـ 5 ص 144).

الصليبي محملاً بالهدايا[1] . وكان الإمبراطور فريدريك بربروسًا يدرك الدور الذي تقوم به الإسماعيلية في الشام، فبادر أثناء مكوثه في عكا في سنة (1127) ميلادية بإرسال مبعوثين إلى شيخ الجبل ومعهم هدية له .

ويبدو أن الامبراطور الألماني، كان يهدف من هذه الإرسالية إلى دراسة منطقة الشرق من الناحية العسكرية، واستمالة قوى الحشاشين تمهيداً لقيامه بحملته الصليبية عام 1189 م، وقد رافقه فيها عدد من المؤرخين منهم Arnould von Lübeck الذي وصف طاعة الحشاشين لزعيمهم واستماتتهم من أجله، حيث كانوا يعتقدون أن مفاتيح الجنة بيده[2] .

ولما قدم ملك فرنسا لويس التاسع إلى عكا في سنة (1250) ميلادية وفد عليه أمير من الإسماعيلية ومعه أتباعه يطلب من الملك رفع الأتاوة التي يدفعونها للداوية والإسبتارية. وكان يقف خلف الأمير شاب بيده ثلاثة خناجر وكأنه يهدد الملك إن رفض طلبهم، ومن ورائه شاب آخر يحمل قماشاً أبيض هو بمثابة كفن للملك. وأمام هذا المشهد المخيف أذنَ الملك للأمير الإسماعيلي بقراءة رسالة شيخ الجبل، فسأل الأمير الملك عَمّا إذا كان يعرف

---

(1) ستيفن رانسيمان، المرجع المذكور جـ 3 ص 165-166 .

(2) برنارد لويس، الحشاشون، ص 14-15 .

شيخ الجبل، فأجاب الملك أنه لايعرفه بل سمع عنه، فأبدى الأمير تعجبه من الملك كيف يسمع بالشيخ ولايسعى إلى نيل صداقته كما فعل ملوك المسلمين والصّليبيين ليطمئنوا على أرواحهم. وطلب الأمير من الملك لويس إعفاءهم من تلك الضريبة وبذلك يحظى برضا الشيخ. إلاّ أن الملك طلب حضور الوفد الإسماعيلي بعد الظهيرة. فلما حضروا وجدوا عند الملك كبيري الداوية والاستبارية اللذين عابا على الأمير الإسماعيلي جرأته على الملك وأمراه أن يعود إلى شيخه ثم يأتي إلى الملك لويس بعد خمسة عشر يوماً ومعه هدايا قيّمة. وقد عاد رسل شيخ الجبل ومعهم قميص الشيخ رمزاً للمودّة حيث إن القميص ألصق بالجسد من غيره مثلما أن الملك لويس أقرب الملوك إلى نفس الشيخ. كما أرسل الشيخ خاتمه الذهبي وعليه اسمه، وعبّر عن تأييده للملك لويس وأنهما أصبحا روحاً واحدة في جسدين، وقد سُرّ الملك بذلك وأرسل إيف البريتوني[1] الذي يعرف العربية بهدية إلى شيخ الجبل[2].

(1) Yves de Breton.

(2) جوانفيل، القديس لويس، ص203-205.

وقد قال إيف البريتوني بعد عودته أن شيخ الجبل غير مؤمن بمحمد (ﷺ) بل يؤمن بعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وأنه أوحى إلى أتباعه بأن من يموت منهم في سبيله فإن روحه تحلّ في جسد أحسن من جسده. لذلك يجد أتباعه متعة وهم يضحّون بأنفسهم من أجل شيخهم اعتقاداً منهم بأن أرواحهم ستصبح في حال أفضل من حالهم الحاضرة[1].

كما قال إيف إنه عثر عند شيخ الجبل على كتاب فيه عبارات قالها المسيح للقديس بطرس، فسأل الشيخ أن يداوم على قراءته فذكر له الشيخ أنه يكن لبطرس احتراماً خاصاً لأنه روح هابيل حلّت فيه بعد حلولها بنوح ثم في إبراهيم.

ويحدثنا الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الذي زار الشام في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، عن الإسماعيلية بأنهم زنادقة لا يؤمنون برسالة محمد وهم يطيعون شيخهم طاعة عمياء[2].

أما بوركارد الذي أرسله الإمبراطور فريدريك إلى مصر والشام في سنة (1175) ميلادية فقد تسنى له رؤية الإسماعيلية في

(1) المصدر نفسه ص 207.

(2) بنيامين التطيلي «الرحلة» ص 87-88.

قلاعهم. ويحسن بنا أن نورد نصّاً من كلامه عنهم، فقد قال: «لاحظ أنه يوجد عند تخوم دمشق وأنطاكية وحلب جنس معين من العرب يعيشون في الجبال ويسمون أنفسهم بالحشاشين. . . وهم يأكلون لحم الخنزير الذي تُحَرّمه شريعة العرب، ويأتون المحارم من أمهاتهم وأخواتهم، ويعيشون في الجبال في شبه منعة كاملة وراء أسوار قلاعهم الحصينة. . . ولهم سيد يُلقي أشد الرعب في قلوب كل الأمراء العرب القريبين والبعيدين على السواء وكذلك يخشاه الحكام المسيحيون المجاورون لهم، لأن من عادته أن يقتلهم بطريقة تدعو للدهشة[1] .

«وهذه الطريقة كالتالي: هذا الأمير يملك في الجبال عديداً من القصور بالغة الجمال تحيطها أسوار عالية جداً بحيث لا يستطيع أحد الدخول إلا عبر باب صغير عليه حراسة مشددة، وفي هذه القصور يربي عدداً من أبناء الفلاحين الذين يؤخذون منذ طفولتهم المبكرة، وهناك يجري تعليمهم لغات مختلفة. . . وهؤلاء الشبّان الصغار يلقنهم معلموهم من شبابهم المبكر إلى رجولتهم الكاملة أن عليهم أن يطيعوا سيّد القلعة في كل ما يقوله أو يأمر به، وأنهم إذا فعلوا ذلك فإنه ـ وهو المسيطر على جميع

---

(1) برنارد لويس، الحشاشون، ص 14.

الآلهة ـ سوف يهبهم مَسَرَّات الفردوس، وهم يلقنون كذلك أن لا أمل لهم في النجاة إذا قاوموا إرادته في أي شيء، ولاحظ أنهم منذ الإتيان بهم أطفالاً لا يرون أحداً سوى معلّميهم وأسيادهم ولا يحصلون على أيٍّ تعليم آخر، وفي الوقت المناسب يجري استدعاؤهم إلى حضرة الشيخ، وعندما يكونون في حضرته يسألهم عما إذا كانوا راغبين في إطاعة أوامره من أجل أن يمنحهم نعمة الفردوس، وعندئذ ينفذون ما تلقّنوه بدون اعتراض أو ريبة فيرمون بأنفسهم تحت قدميه ويجيبون بحماسة أنهم سوف يطيعونه في كل ما يأمر به. وحينئذ يقوم الشيخ بإعطاء كل منهم خنجراً ذهبياً ويرسلهم لقتل من يشاء من الأمراء»[1].

والإسماعيلية جمعية سرّية، لها عقائدها الخاصة وتعتمد على نظام المراتب والدرجات، ويطلق على كيانها الدعوة، ويسمّى القائمون عليها «الدعاة»[2]، وقد اهتم الإسماعيليون بنشر دعوتهم في الشام بين المسلمين والصليبيين. وكما ذكر بوركارد فإنهم يحرصون على الأطفال ليغذّوهم منذ الصغر بتعاليمهم الخاصة.

---

(1) برنارد لويس، الحشاشون، ص 14-15.

(2) المرجع نفسه ص 95-96.

روي عن الإسماعيلية أنهم أسروا في سنة ثمان وستمائة (وهي توافق سنة 1211 ميلادية) اثنين من القساوسة لهما معرفة بتحضير الأرواح، ولما مثلا أمام شيخ الجبل أوحى إليهم بأن الله لن يعيد الأراضي المقدسة إلاّ على يد أطفال أبرياء، ثم أخلى سبيلهما بعد أن اشترط عليهما القيام بحملة صليبية قوامها من الأطفال. ومن المعروف أن هناك حملة معروفة بحملة الأطفال خرجت من أوروبا عام (1212)[1] . ولكن هؤلاء الأطفال لم يصلوا إلى الشرق بل باعهم تجار إيطاليا في أسواق تونس ومصر.

لقد كان هناك أفراد صليبيون يتصلون بالإسماعيلية إما بهدف التعرف على مذهبهم، أو من أجل أغراض أخرى، وقد ورد أن فارساً صليبياً يدعى جيوم دو مونبار[2] كان قد تلقى تعاليم الإسماعيلية على شيخ من شيوخهم كان مقيماً في مغارة في جبل لبنان. وعلى الرغم من أن فرسان الهيكل كانوا يفرضون ضريبة على الإسماعيلية، إلاّ أنهم تأثروا بهم، فتزيوا بزي الإسماعيلية ذي اللونين الأبيض والأحمر، واتخذوا نظام المراتب الثلاث فقسموا أنفسهم إلى مبتدئين ومنتهين وفرسان على نمط مراتب

(1) انظر أسامة زكي زيد، الصليبيون وإسماعيلية الشام، ص 302.

(2) Guillaume de Monbar.

الإسماعيلية الفداوية والرفاق والدعاة، كما أطلقوا على زعيمهم لقب «السيد الأعظم» وهو لقب شيخ الإسماعيلية[1] .

ومن خلال الهيكليين تسربت إلى أوروبا الأساليب السرّية التي كان الإسماعيلية يتبعونها مع أعضائهم، فقد كانت لديهم تعاليم للعامة وأخرى للخاصة، ولخاصة الخاصة تعاليم سرّية، وهناك أسرار الجمعية لا يعلمها إلاّ زعماؤها، ولا يصل إلى مرتبة الزعامة أحد إلاّ بعد أن يجتاز امتحاناً عسيراً ويقسم اليمين على كتم السرّ والوفاء للجمعية. وإضافة إلى ذلك فللإسماعيلية طرقهم في استخدام الحروف والرموز التي تدلّ على معان سرّية مفهومة لديهم فقط. وهذا ما أخذه الماسونيون وطبقوه في محافلهم[2] . ويعتبر الماسونيون فرسان الهيكل من أجدادهم العظام، فهم يقدسون هيكل سليمان لأنه رمز مقدس لدى اليهود الذين صنعوا الماسونية، ولأن نظمهم السرّية المتأثرة بنظم الإسماعيلية جاءتهم عن طريق فرسان الهيكل، فلا عجب أن يكتب الماسونيون في شهادة الدرجة الثالثة والثلاثين عبارة (فارس الشرق وصاحب الحسام، أمير بيت المقدس، فارس الشرق والغرب، فارس الصليب الوردي، رئيس المعبد، القائد الأعظم للهيكل المقدس)[3] .

---

(1) أسامة زكي زيد، المرجع نفسه ص 253.

(2) قاسم السامرائي، أصول الماسونية، ص 6-7.

(3) نفسه ص 7، 9؛ لويس شيخو «السرّ المصون، جـ 1 ص 11.

الكنيسة والمذاهب الجديدة:

حمل الصّليبيون إلى أوروبا كثيراً من عقائد الشرق إسلامية، وغير إسلامية كالمانوية[1] التي دخلت في القرن الثالث الميلادي. وأدت الأفكار الجديدة التي انتشرت في أوروبا إلى ظهور فرق متأثرة بالعقائد الشرقية. وما إن انتصف القرن الثاني عشر الميلادي حتى أصبحت أوروبا تعج بمذاهب جديدة، وكان في ميلانو[2] وحدها سبعة عشر مذهباً، وقد عبّر أحد القساوسة عن قوة انتشار هذه الجماعات بقوله: «إن المدن ملأى بأولئك الأنبياء الكاذبين»[3].

ومن هذه الفرق جماعة الوالدونسيين[4] التي شكلها بطرس والدو[5] سنة (1170) ميلادية، وكانت في بداية الأمر مجموعة من الرّهبان تدعو إلى حياة الزّهد والتقشف، وبعد زمن تحولت هذه الفرقة إلى حركة معادية لرجال الدِّين، ونشرت مبادئها

---

(1) عقيدة ثنوية ابتدعها فارسي يدعى ماني Mani (216 - 274)، تأثر بالزرادشتية وقال بأن الكون خاضع لمبدأ الخير والشر، والمادة والروح. انتشرت تعاليمه في فارس والهند (Encycl. Brit. Micropaedia. Vol. P. 556).

(2) Milano.

(3) ول ديورانت، قصة الحضارة، جـ 5 / 4 ص 74 - 75.

(4) Waldensens.

(5) Pater Waldo (المتوفى عام 1217).

الجديدة، فأنكرت بعض الطقوس النصرانية، ودعت إلى أن تكون جميع الأشياء ملكاً مشاعاً بين الناس. وكان مركزها جنوب فرنسا إلا أنها انتشرت في أسبانيا وألمانيا، وقد صدر عام (1184) قرار بحلّ هذه الجماعة، وقد تعرض كثير منهم للحرق والتعذيب[1].

وكان الباتريلي أو البتريائيون[2] نسبة إلى حي في ميلانو يسمى باتاريا[3]، أهم الفرق التي ظهرت في هذه المدينة. وقد تألّفت في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي من أصحاب الحرف والتجار والفلاحين. وعملت على محاربة الفساد المنتشر بين رجال الكنيسة. وقد كانت هذه الحركة دافعاً لحركات إصلاحية أخرى قامت في الفترة التي بدأ فيها تدهور النظام الإقطاعي وازدهار الطبقة الوسطى[4].

وطالب أحد زعماء هذه الفئة بمصادرة أملاك الكنسيين، وقد قوبلت من قبل الكنيسة بالإجراءات الشديدة، ومع ذلك فقد

---

(1) ول ديورانت «قصة الحضارة» جـ 5/ 4 ص 75-77.

(2) Patarelli (Patarines).

(3) Pataria.

(4) ول ديورانت المرجع المذكور جـ 5/ 4 ص 77،

Encycl. Brit. Micropaedia. Vol. VII. P. 793.

استمرت هذه الجماعة تدعو إلى مبادئها. ففي سنة (1273) ميلادية جهروا بسبِّ البابوية، واقتحموا الكنائس ودنّسوها[1].

ومن هذه الفرَق أيضاً فرقة الكاثاري[2] أي الأطهار وكانت أقوى الفرق التي ناهضت الكنيسة، ويقسمَ أتباعها الكون كالمانويين إلى الخير وهو الله والروح والسماء، والشر وهو الشيطان والمادة والعالم المادي، وهم يعتقدون بأن الشيطان هو خالق العالم المرئي، وأن المادة كلها شرٌّ حتى الصّليب الذي مات عليه المسيح كما يزعمون. وحرّم الكاثاري الزواج لأنه مدعاة للاتصال الجسدي، والجسد مادة. وحرّموا كذلك قتل الحيوان، وأكل اللحوم، والبيض ومنتجات الألبان، واقتصروا في غذائهم على السمك والنبات[3].

وأفراد هذه الطائفة يقولون بأن المسيح ملك من الملائكة لم تلده مريم وليس هو الله، وأنكروا الثالوث، والعشاء الرّبّاني، والقُدّاس، وتعظيم صور القديسين، وهم لا يؤمنون بوجود النار لأن الروح حسب عقيدتهم تمر في عدة أدوار من التناسخ كفيلة بأن تطهرها من الذنوب[4].

---

(1) ول ديورانت، المرجع السابق، جـ 5 / 4 ص 77.

(2) Cathare.

(3) ول ديورانت، المرجع السابق، جـ 5 / 4 ص 78-79.

(4) المرجع نفسه، جـ 5 / 4 ص 79 - 80.

وتطور أمر هذه الفرقة إلى القدح بالبابا الذي وصفوه بأنه المسيح الدجال، وأن رجاله زمرة الشيطان وأعوانه. ونفوا أن تكون الكنيسة كنيسة المسيح وقالوا: إنَّ بطرس لم يطأ أرض روما، وقالوا: إن البابوات الذين يقطنون في قصور فخمة وضياع شاسعة لا يمكن أن يكونوا خلفاء للمسيح الذي لم يجد موضعاً لرأسه فهم خلفاء للأباطرة. ونددت هذه الجماعة بدعاة الحروب الصّليبية ووصفتهم بالقتلة، والقتل عندهم محرم ولو كان للأعداء[1] .

هذه الآراء التي أعلنتها فرقة الكاثاري انتشرت في سائر أوروبا فقد تغنى بها الشعراء وأخذ الناس يرددون الأغاني الشعبية التي تتضمن بعضاً من آراء الكاثاري، وشن الشعراء والكتاب حملة على رجال الكنيسة ووصفوهم بأنهم خونة، منافقون كاذبون، ووصفوا الكنائس بأنها أوكار اللصوص[2] . وكان من القصائد التي شاعت بين الناس قصيدة عنوانها «الإنجيل حسب الماركات الفضية» مضمونها اتهام رجال الدِّين بأنهم يأخذون الرّشاوى ويتاجرون بصكوك الغفران[3] .

---

(1) ول ديورانت، المرجع نفسه، جـ 5 / 4 ص 80.

(2) المرجع نفسه، جـ 5 / 4 ص 81.

(3) المرجع نفسه، جـ 5 / 4 ص 71 - 72.

وفرقة الأطهار هذه كانت واحدة من فرق كثيرة خرجت على الكنيسة وتألّفت حول مدينة ألبي في جنوب فرنسا فنسبت إليها وعرفت بالفرق الألبيجنسية[1] . وقد رأت البابوية أن محاربة هذه الفرق لا تقلّ أهمية عن محاربة المسلمين في فلسطين لأنها تشكّل خطراً على مستقبل الكنيسة في أوروبا، وهذا ما حدث فعلاً في القرون اللاحقة لهذه الفترة[2] .

وقد عبّر البابا أنوسنت الثالث عن مخاوفه من هذه الجماعات بقوله: «إن قارب القديس بطرس الصغير تتقاذفه أمواج البحر، ولكن أشدّ ما يحزنني ويقض مضجعي. . . أن قامت في هذه الأيام فئة لم نر لها فيما مضى مثيلاً في تحرّرها من جميع القيود، وفي شدّة أذاها. قد ارتكبت أخطاء لا يرتكبها إلا الشياطين، وأخذت توقع نفوس السذّج من الناس في حبائلها، وتفسد بخرافاتها وبدعها الكاذبة معاني الكتاب المقدس وتحاول أن تهدم وحدة الكنيسة الكاثوليكية»[3] .

وقد أمر البابا أنوسنت الثالث بشن حرب صليبية ضد الألبيجنسيين أُزهقت فيها الأرواح ودُمّرت من جرائها مدن

---

(1) Albigeois نسبة إلى مدينة Albi .

(2) ول ديورانت، المرجع السابق، جـ 5 / 4 ص 83.

(3) المرجع نفسه.

كثيرة[1] ولكن ظلّ كثير منهم ملتزمين بأفكارهم على الرغم من مقاومة رجال الدّين لهم، وكان ملك فرنسا لويس التاسع الملقّب بالقديس يمقت هذه الجماعة لأنهم كثيراً ما يسألون عن أشياء في صلب العقيدة النصرانية - لم يقتنعوا بها - ويحتاجون إلى تفسير لها. فلا يجد الكنسيون جواباً غير وصمهم بالكفر والمروق من الدِّين[2].

هذه الحركات على الرغم من تعدد آرائها ومبادئها، إلاّ أنها في مجملها دعت إلى تحرير الشعوب الأوروبية من هيمنة الطبقة الكنسية. هذه الطبقة التي استغلت مناصبها الدينية لتحقيق مآربها الخاصة، وفرضت على المجتمع قيوداً منعته من التطور والإبداع. وكانت البابوية حينما دعت إلى الحروب الصليبية تظن أنها بذلك تصنع قوة لها في الشرق، غير أن النتائج كانت بخلاف ما توقعه رجال الدِّين. حقاً لقد انتصر الصّليبيون في بادئ الأمر ولكنهم وقعوا أسرى الحضارة الإسلامية بجوانبها المختلفة، وعاد الكثيرون منهم إلى بلدانهم ينشرون ما تعلّموه من المسلمين وما رأوه في الشرق من مظاهر حضارية.

وهذه الصور الرائعة للشرق، التي تناقلها العائدون إلى مدنهم

---

(1) المصدر نفسه ص 86.

(2) انظر: جوانفيل «القديس لويس» ص 45.

الأوروبية، جعلت الناس يتلهفون إلى حضارة مماثلة وتأثرت جماعات منه بالمبادئ الشرقية سواء كانت إسلامية أو غير إسلامية، مكونين أفكاراً ونظريات أسسوا عليها مذاهبهم. وإزاء هذا التطور الخطير عمدت الكنيسة إلى مكافحة هؤلاء بكل ما ملكت من أساليب. وشنت عليهم حروباً صليبية. ومع ذلك لم تستطع القضاء على مبادئهم رغم القتل والتشريد.

وفي الشرق تعرضت الجيوش الصليبية التي يباركها البابا إلى هزائم متعددة ولم تؤد إلى تنصير المسلمين، الأمر الذي جعل رجال الكنيسة يفكرون بأسلوب جديد يحمي النصارى من المؤثرات الإسلامية من جهة، ومن جهة أخرى يضمن انتشار النصرانية بين المسلمين، فأرسلت الكنيسة وعاظاً إلى الجماعات المناوئة لها. ويبدو أن فكرة التنصير قد استهوت الكنسيين وبخاصة الذين عاشوا في الشرق، وقرأوا التاريخ الإسلامي وما فيه من صفحات رائعة من انتشار الإسلام في الجزيرة العربية، وفي خارجها من الأقاليم النائية ـ هذا الانتشار الذي تمّ بالحكمة والموعظة الحسنة. ومن هؤلاء وليم الطرابلسي أسقف عكا الذي قال: «نُريد مرسَلين لا جنوداً لاسترداد الأرض المقدسة»[1].

---

(1) فيليب حتي، تاريخ لبنان، ص 394 - 395.

في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي بدأت الرّهبنات تنتشر في الشام، ففي عام (1154) أسس راهب صليبي الرّهبنة الكرملية في جبل الكرمل، وقد انتشرت في الشام وأسست لها مركزاً في طرابلس. وفي القرن الثالث عشر جاءت إلى فلسطين إرساليات فرنسيسكانية[1] ودومنيكانية[2]، ففي عام (1219) قدم إلى الشرق (القديس) فرانشيسكو داسيسي وأسس بعد قدومه بسنتين الرهبنة الفرنسيسكانية في عكا ثم انتشرت في طرابلس وبيروت[3].

وقد مارس فرانشيسكو التنصير في مصر مع الملك الكامل حيث عرض عليه النصرانية، وطلب من الملك أن توقد له نار

---

(1) Franciscans رهبنة أسسها فرانشيسكو داسيسي Fransesco d'Assisi (1182-1226) في سنة 1207. وفي عام 1209 حصل فرانشيسكو على اعتراف البابا أنوسنت الثالث، وقد كثر عددهم حتى بلغ خمسة آلاف خلال تسع سنوات، وقد وضع فرانشيسكو نظاماً لهم حظي بتأييد من البابا هونوريوس الثالث عام 1123، وانتشر أعضاء هذه الرهبنة في كثير من المدن الأوروبية وفي فلسطين.

Encycl. Brit. Micropaedia. Vol. IV. P. 273-274.

(2) Dominicanc رهبنة كونها (القديس) دومنيك St. Dominique (1170 - 1221) في عام 1215 في تولوز، وفي 22 ديسمبر عام 1216 اعترف البابا هونوريوس الثالث بأخويته. وفي سنة 1218 بعث دومنيك أتباعه للدراسة في جامعات أوروبا وقد تأثر بهم كثير من الطلاب ثم انتشرت هذه الرهبنة في العالم الإسلامي.

(Encycl. Brit. Micropaedia.Bol. III. P. 614-615)

(3) فيليب حتي، تاريخ لبنان، ص 394 - 395.

ليدخل فرانشيسكو منها فإن خرج حيّاً كان على الملك أن يتنصّر. ولكن الملك الكامل رفض هذا الرِّهَان. عطفاً منه على هذا الراهب، لئلا يكون وقوداً للنار، فأمر جنوده بإيصال هذا الرجل إلى قومه المرابطين بدِميَاط[1].

وفي عام (1230) وصلت إلى الشام إرسالية دومنيكانية للقيام بنشر النصرانية بين المسلمين، وكان لها انتشار واسع في فلسطين[2]. وفي عام (1253) أنشأ البابا أنوسنت الرابع أول مجتمع تنصيري مهمته نشر النصرانية بين المسلمين، إلاّ أن تطوير الأسلوب التنصيري جاء على يد ريموندلل[3] وهو من أصل إسباني كان قد تعلّم اللغة العربية واطلع على التراث الإسلامي، وقد أعد خطة لتنصير المسلمين عرضها على البابا سلستين الخامس[4] وفي هذه الخطة ركز ريموندلل على أن تتخذ الكنيسة العلم والمدارس وسيلة للتنصير. وقد تحمس لهذه الفكرة وقام بتدريب زملائه الرُّهبان على كيفية نشر النصرانية بالطرق السلمية وبوساطة الحبّ والصلوات وانهمار الدموع، والأعمال الإنسانية،

---

(1) ول ديورانت «قصة الحضارة» جـ 4 / 4 ص 131.

(2) فيليب حتي، تاريخ لبنان، ص 394 - 395.

(3) Rymond Lull (1233 - 1315م).

(4) Celestine V (1294 - 1296م).

وبعد عشر سنين من إعداد خطته قام ريموند بمحاولة تنصير المسلمين في الشرق وشمال إفريقية. واتصل بالتتار يدعوهم إلى دينه وكان يحث البابوات على العمل من أجل التنصير. وبإلحاح وافقت البابوية على إنشاء ست مدارس لتعليم اللغات الشرقية[1].

« تم الكتاب والحمد لله ربّ العالمين »



(1) محمود الحويري، الأوضاع الحضارية، 254-255.

المصادر (*)

(*) هذه العلامة، تعني أن المصدر أو المرجع أضيف أثناء إعداد الكتاب للطبع عام 1414هـ.

ابن الأثير (عز الدّين أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد الجزري، المتوفى سنة 630 هـ: الكامل في التاريخ. دار صادر ودار بيروت - بيروت 1966 م).

ابن أبي أصيبعة (موفق الدّين أبو العباس بن أحمد بن القاسم السعدي الخزرجي، المتوفى سنة ٦٦٨ هـ: عيون الأنباء في طبقات الأطباء. تحقيق نزار رضا. دار مكتبة الحياة - بيروت 1965).

ابن بسّام (محمد بن أحمد المحتسب، عاش قبل سنة ٨٤٤ هـ: نهاية الرتبة في طلب الحسبة تحقيق حسام الدين السامرائي. مطبعة المعارف. بغداد 1968م).

ابن العماد الحنبلي (عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، المتوفى سنة 1089 هـ: شذرات الذهب في أخبار من ذهب(*) (1 - 10) تحقيق محمود الأرناؤط، بإشراف عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، 1406 - 1414 هـ).

البغدادي (عبد اللطيف بن يوسف بن محمد، المتوفى سنة 629هـ: الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر. ب. م، ب. ت).

البَلَوي (خالد بن عيسى، المتوفى سنة 780 هـ: المفرق في تحلية علماء المشرق. تحقيق الحسن السائح. مطبعة فضالة المحمدية (المغرب). ب.ت.

البُنْدَاري (أبو إبراهيم الفتح بن علي بن محمد البنداري الأصفهاني، المتوفى سنة 643 هـ: سنا البرق الشامي. اختصار كتاب البرق الشامي للعماد الكاتب الأصفهاني، المتوفى سنة 597 هـ. تحقيق فتحية النّبْرَاوي مطبعة الجبلاوي، القاهرة 1979 م).

بنيامين التطيلي (بنيامين بن بونة النباري الأندلسي، المتوفى سنة 569 هـ: الرحلة: ترجمة عزرا حداد. المطبعة الشرقية ـ بغداد 1945م).

الحنبلي العُلَيمي (عبد الرحمن بن محمد العُليمي المقدسي، المتوفى سنة 928 هـ: الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. تقديم محمد بحر العلوم. المطبعة الحيدرية ـ النجف 1968م).

ابن جُبير (أبو الحسين محمد بن أحمد الكناني، المتوفى سنة 614هـ: تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار. المعروفة برحلة ابن جبير. دار الكتاب اللبناني بيروت. ب.ت).

جوانفيل (جان دو جوانفيل، المتوفى سنة 1317 م: القديس لويس: حياته وحملاته على مصر والشام. ترجمة حسن حبشي دار المعارف. القاهرة 1968م).

ابن خلدون (ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي الإشبيلي، المتوفى سنة 808 هـ: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم، من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون. مؤسسة الأعلمي بيروت 1971 م).

ابن سينا (أبو علي الحسن بن عبد الله ، المتوفى سنة 428 هـ: القانون في الطب. الكتاب الثاني في الأدوية المفردة من المجلد الأول. طبعة جديدة أخذت عن طبعة بولاق (1294هـ). دار صادر. بيروت ب. ت).

أبو شامة المقدسي (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل، المتوفى سنة 665هـ: الروضتين في أخبار الدولتين. مطبعة وادي النيل. القاهرة 1288 هـ).

ابن شَدّاد (بهاء الدين يوسف بن رافع، المتوفى سنة 632 هـ: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين).

تحقيق جمال الدين الشيّال. الدار المصرية للتأليف والترجمة. القاهرة 1964 م).

الشيزري (عبد الرحمن بن عبد الله الشافعي، المتوفى سنة 589 هـ: نهاية الرتبة في طلب الحسبة. تحقيق السيد الباز العريني. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة 1946 م).

الظاهري (غرس الدين خليل بن شاهين، المتوفى سنة 872: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك. تصحيح بولس راويس. المطبعة الجمهورية. باريس 1894 م).

ابن العبرى (أبو الفرج غريغريوس بن آهرون الملطي، المتوفى سنة 685 هـ: تاريخ مختصر الدول. وضع حواشيه الأب أنطون صالحاني اليسوعي. المطبعة الكاثوليكية. بيروت 1958م).

علي بن عباس المجوسي (المتوفى حوالي سنة 400 هـ: كامل الصناعة الطبية المعروف بالملكي. المطبعة الكبرى. القاهرة 1294 هـ).

ابن قاضي شهبة (بدر الدين أبو الفضل محمد، المتوفى سنة 874هـ: الكواكب الدرية في السيرة النورية تحقيق محمود

زايد. دار الكتاب الجديد/ بيروت 1971 م).

الكتاب المقدس (دار الكتاب المقدس. القاهرة 1969 م).

المؤلف المجهول (أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس. ترجمة حسن حبشي. دار الهناء للطباعة. القاهرة 1958 م).

المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي الحسيني العبيدي، المتوفى سنة 845 هـ: السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة. مطبعة دار الكتب المصرية. القاهرة 1934 م).

ابن منقذ (أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنَاني الكلبي الشيزري، المتوفى سنة 584 هـ: الاعتبار. حرره فيليب حتي. مطبعة جامعة برنستون 1930م).

ابن النديم (محمد بن اسحق بن محمد بن اسحق، المتوفى سنة 438 هـ: الفهرست دار المعرفة ـ بيروت. ب. ت).

ابن واصل (جمال الدّين محمد بن سالم، المتوفى سنة 697 هـ: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب. تحقيق حسنين محمد ربيع. مطبعة دار الكتب. القاهرة 1972 م).

وليم الصوري، الحروب الصليبية(*) ترجمة حسن حبشي. الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1919م).

ياقوت (شهاب الدّين أبو عبد الله ياقوت الحَمَوي الرّومي البغدادي، المتوفى سنة 626 هـ: معجم البلدان. دار إحياء التراث العربي. بيروت. ب.ت).

المراجع العربية

أحمد شلبي (الحروب الصليبيّة إحدى حلقات الصراع بين الشرق والغرب) (دراسات في الإسلام. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية) العدد 62، السنة السادسة (31 أغسطس 1966م).

أسامة زكي زيد (الصليبيون وإسماعيلية الشام في عصر الحروب الصليبية، مطبعة مصنع الإسكندرية للكراس. الاسكندرية 1980 م).

أمين الخولي (صلة الإسلام بإصلاح المسيحية. مطبعة الأزهر. القاهرة 1939 م).

جلال مظهر (أثر العرب في الحضارة الأوروبية. دار الرائد. بيروت 1967 م).

جمال الدين الشّيال (التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر الأوروبي في عصر النهضة. دار الثقافة القاهرة. ب.ت).

جورج حداد (المدخل إلى تاريخ الحضارة. مطبعة الجامعة السورية. دمشق 1953 م).

جوزيف نسيم يوسف (العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى. دار النهضة. الطبعة الثالثة. بيروت 1981م مكتبة الحروب الصليبية 1).

حسن حبشي: (مقدمة كتاب « أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس)، انظر المصادر ص 192).

خير الدين الزركلي (الأعلام. تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين. دار العلم للملايين. بيروت. الطبعة الخامسة 1980 م).

دائرة المعارف الإسلامية (ترجمة محمد ثابت الفندي وآخرين. طهران ب. ت).

زكي النقاش (العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية. دار الكتاب اللبناني. بيروت 1958 م).

سعيد عبد الفتاح عاشور

- أضواء جديدة على الحروب الصّليبية. دار القلم. القاهرة 1964 م (المكتبة الثقافية 118)

- الحركة الصَّليبية. مطابع سجل العرب. القاهرة. الطبعة الثانية 1971 م.

- أوروبا العصور الوسطى. مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة. الطبعة السادسة 1975م.

- بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى. دار الأحمد. بيروت 1977 م.

القلماوي سهير القلماوي ومحمود علي مكي («الشعر الغنائي»: فصل في كتاب أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية (بإشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة. المطبعة الثقافية. القاهرة. 1970. ص 23 - 69).

السيد الباز العريني (مؤرخو الحروب الصّليبية. دار النهضة العربية. القاهرة 1962 م).

السيد عبد العزيز سالم (التاريخ والمؤرخون العرب. شركة الاسكندرية 1967).

طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي. مطابع رمسيس الإسكندرية 1967 م.

عباس محمود العقاد (أثر العرب في الحضارة الأوروبية. دار المعارف. القاهرة. الطبعة الثانية 1963 م).

عبد الحميد منتصر (تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه. دار المعارف ـ القاهرة 1980 م).

عبد العظيم رمضان (الصراع بين العرب وأوروبا منذ ظهور الإسلام إلى انتهاء الحروب الصّليبية، دار المعارف. القاهرة. ب. ت).

عبد القادر أحمد اليوسف (العصور الوسطى الأوروبية. المكتبة العصرية. صيدا وبيروت 1967 م).

علي حسني الخربوطلي (الإسلام وأهل الذمة (سلسلة التعريف بالإسلام ـ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 49). القاهرة 1969م).

علي الغمراوي (الأصول المعجمية مع شواهد من كتاب الحشائش والسموم نقل إسطفان بن باسيل عن كتاب ديسقوريدس في هيولى الطب. . . De Materia Medica (دراسة في المنهج التطبيقي لتاريخ الطب). القاهرة 1979.

- أثر الثقافة الإسلامية في الفكر الأوروبي (محاضرة في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام 1403هـ).

عمر عبد السلام تدمري (الحياة الثقافية في طرابلس خلال العصور الوسطى. دار فلسطين. بيروت 1973 م).

عمر فروخ (الحضارة الإنسانية وقسط العرب فيها. دار لبنان - بيروت. الطبعة الثانية 1400 هـ).

عمر كمال توفيق («المؤرخ وليم الصوري»: مقالة في مجلة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية. العدد 21 سنة 1967 م. مطبعة جامعة الإسكندرية 1968 م. ص 181 - 200).

قاسم السامرائي (أصول الماسونية التاريخية وموقفها من الإسلام «محاضرة في كلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية» عام 1402 هـ).

لويس شيخو (الأب) (السرّ المصون في شيعة الفرمسون. المطبعة الكاثوليكية - بيروت - الطبعة الثالثة 1910 م).

محمد جميل بيهم (قوافل العروبة ومواكبها. مطبعة الكشاف. بيروت 1948 م).

محمد سمير عبد الحميد («من أثر العرب الأدبي على كُتَّاب الرومانتيكية في إنجلترا» مقالة في مجلة الأزهر - رجب وشعبان عام 1386هـ - ص 574 - 580).

محمود محمد علي الحويري (الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. دار المعارف. القاهرة، 1979 (وقد اعتمدت على الرسالة لا على الكتاب).

مريم البغدادي (شعراء التروبادور. مطابع النصر جدة 1401هـ).

الموسوعة العربية الميسرة (دار نهضة لبنان - بيروت 1981 م).

نجيب العقيقي (المستشرقون. دار المعارف. القاهرة الطبعة الرابعة 1980م).

نقولا زيادة (رواد الشرق العربي في العصور الوسطى. مطبعة المقتطف. القاهرة 1943 م).

* * *

قائمة المراجع المترجمة

أحمد رضا بك (الخيبة الأدبية للسياسة الغربية في الشرق. ترجمة محمد بوقيبة ومحمد الصادق الزمرلي. دار بوسلامة. تونس الطبعة الثانية 1977م).

آرنست **باركر** (الحروب الصّليبية. ترجمة السيد الباز العريني. دار النهضة بيروت. الطبعة الثانية 1967 م).

الدوميلي (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي. ترجمة عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى. دار القلم. القاهرة 1962م).

أمين أسعد خير الله (الطب العربي: ترجمة مصطفى أبو عز الدّين. المطبعة الأميركانية. بيروت. 1946 م).

أودين كالفيرلي («الدّين الإسلامي»: فصل في كتاب الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته ـ تأليف كويلرنج. ترجمة عبد الرحمن محمد أيوب. مطبعة الرسالة. ب. ت. ص 162 - 187).

برنارد لويس (العرب في التاريخ. ترجمة نبيه فارس ومحمود يوسف زايد. دار العلم للملايين بيروت 1954 م.

- الحشاشون. فرقة ثورية في تاريخ الإسلام. ترجمة محمد العزب موسى. دار المشرق العربي الكبير. بيروت 1980م).

بيريل سمالي (المؤرخون في العصور الوسطى. ترجمة قاسم عبده قاسم. دار المعارف. القاهرة 179 م).

جاك. س. ريسلر (الحضارة العربية. ترجمة غنيم عبدون وأحمد فؤاد الأهواني. الدار المصرية للتأليف والترجمة. ب. ت.

جوزيف جارلند (قصة الطب. ترجمة سعيد عبده. دار المعارف. القاهرة. 1959 م.

حيدر بامات (مجالي الإسلام. ترجمة عادل زعيتر. مطبعة دار إحياء الكتب. القاهرة 1956 م).

روم لاندو (الإسلام والعرب. ترجمة منير البعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت 1962 م).

زيغريد هونكة (شمس العرب تسطع على الغرب. ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي. دار الآفاق الجديدة. بيروت. الطبعة الخامسة 1981 م).

ستيفن رانسيمان (تاريخ الحروب الصّليبية. ترجمة السيد الباز العريني. دار الثقافة. بيروت 1968 - 1981 م).

غوستاف لوبون (حضارة العرب - ترجمة عادل زعيتر - دار إحياء الكتب العربية. القاهرة 1945 م).

فيليب حتي (موجز تاريخ الشرق الأدنى - ترجمة أنيس فريحة. مطبعة الغريب. بيروت ب. ت.

- تاريخ العرب (المطول) ترجمة إدوارد جرجي وجبرائيل جبور. دار الكشاف. بيروت 1952 م).

ماكس مايرهوف («العلوم والطب» فصل في كتاب تراث الإسلام. إشراف سير توماس. ترجمة جرجس فتح الله الحامي. دار الطلبة. بيروت. الطبعة الثانية 1972 م. ص445 - 508)

مكسيموس مونروند (من تاريخ الأرض المقدسة المدعوة حرب الصليب. ترجمة كيريوكيريو مكسيموس مظلوم. طبع في دير الرهبان الفرنسيسكان القدس 1841 م).

مونتغمري واط (أثر الحضارة العربية الإسلامية على أوروبا . ترجمة جابر أبي جابر . منشورات وزارة الثقافة . دمشق 1981م) .

هـ . ل . فشر (تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني . دار المعارف . القاهرة 1950 م) .

هرنشو (علم التاريخ . ترجمة عبد الحميد العبادي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة 1937 م) .

ول ديورانت (قصة الحضارة . ترجمة محمد بدران . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة . الطبعة الثانية 1967م) .

* * *

قائمة المراجع الأجنبية

- **BARRET / GURGAND**, Si Je t'oublie Jérusalem. Hachette. Paris 1982*

- **CASTRIES** , La Conquête de la Terre Sainte, Par les croisés* Albin Michel-Paris 1973.

- **DOZY** (Reinhart) ENGELMAN (W.H) : Glossaire des mots.

- **ESPAGNOLS** et portugais dérivés de L'Arabe. Beirut : Librairie du Liban 1974.

- **ENCYCL. BRIT.** =ENCYCLOPAEDIA BRITANNICA. 15 th Edition. 1983.

- **LAROUSSE,** ENCYCLOPEDIQUE EN COULEURS* Paris 1977.

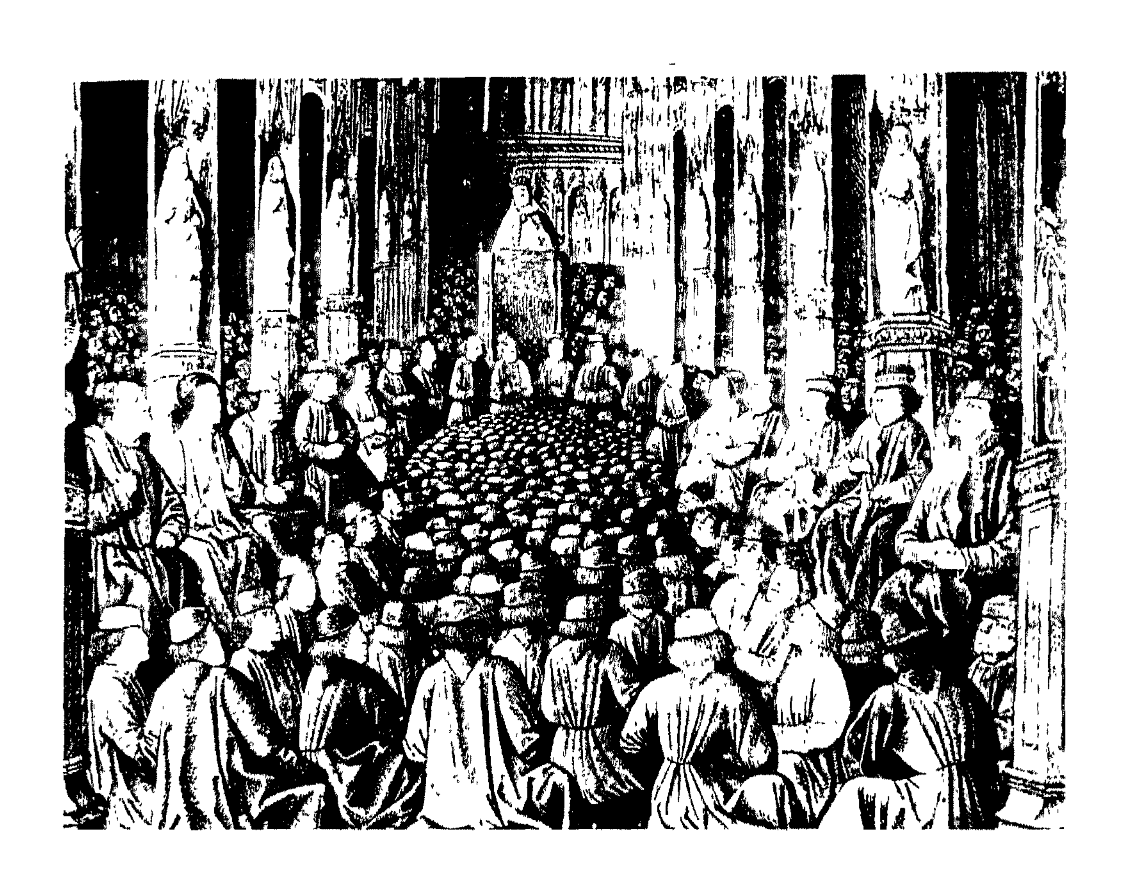
«وقد استفيد منه فيما يخص الأعلام الفرنجية».

- **Groeber (Gustav) :** Uebersicht Ueber die lateinische Litteratur von der mitte des vol. Jahrhunderts bis zur mitte des Xiv Jahrhunderts. munchen: Wilhelm Fink verlag 1902.

SCHORTER C.M.H. = Schorter Cambridge medieval history. 2 Vols. cambridge : The University press 1966.

أما ما يخص اللوحات فقد جمعتها من مصادر شتى أثناء إقامتي في فرنسا

* * *



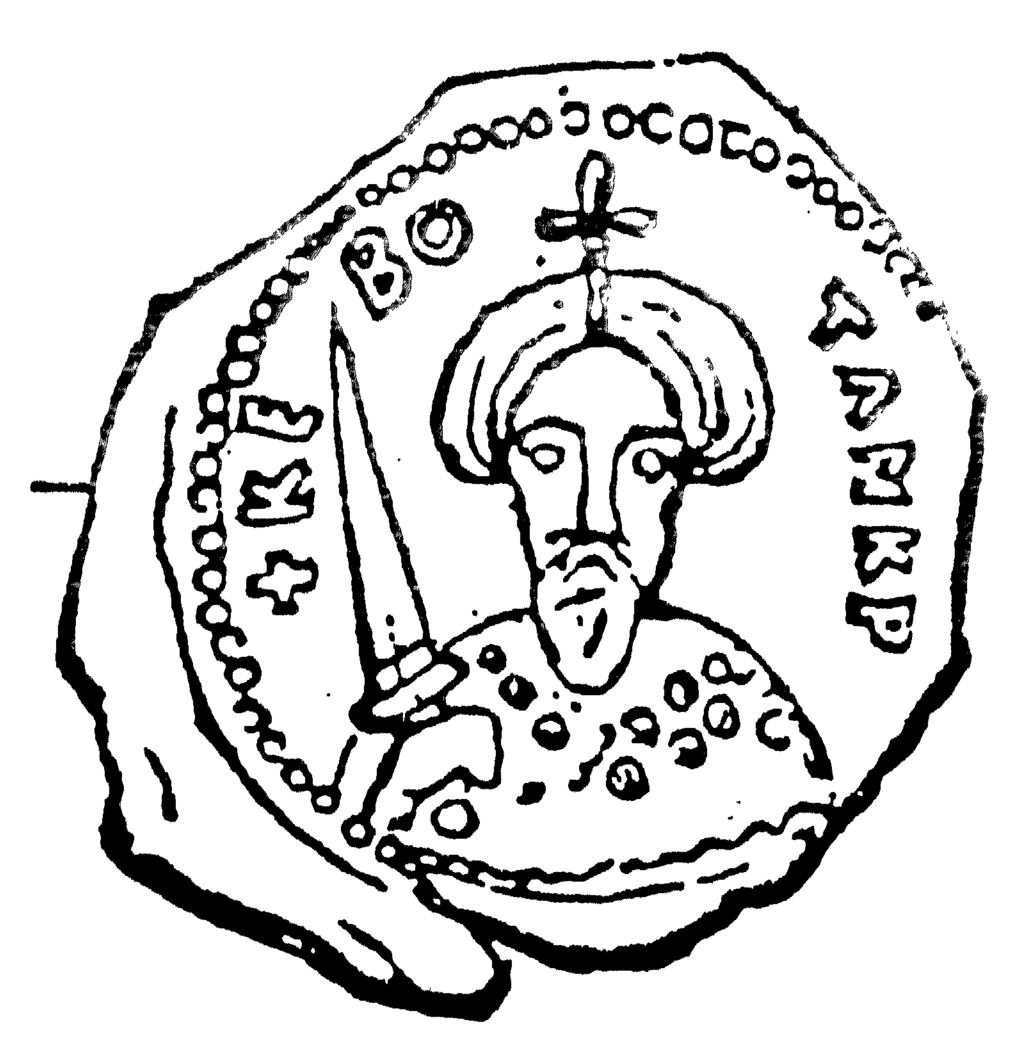
البابا أوربان الثاني في مؤتمر كليرمون



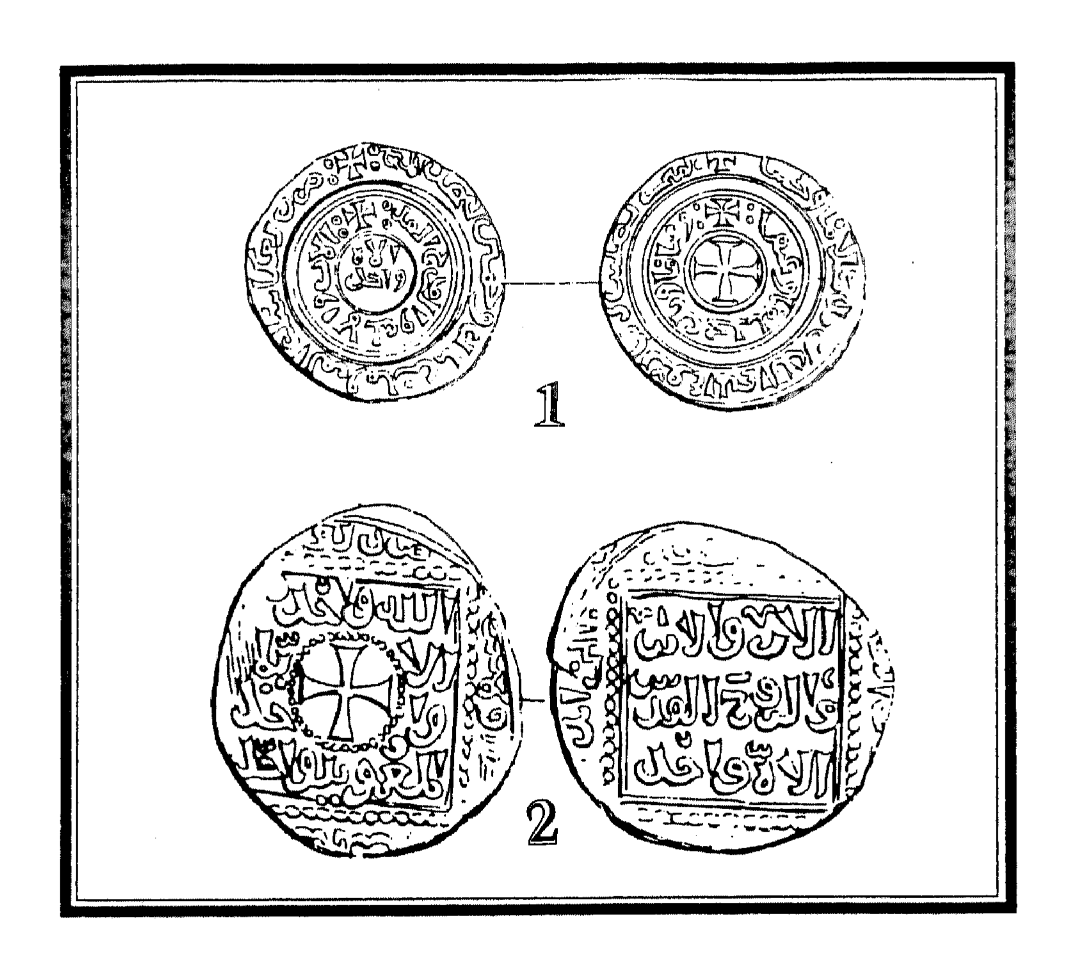
بطرس الناسك والبابا أوربان الثاني



بطرس بارثلمي يكتشف الحربة المقدسة



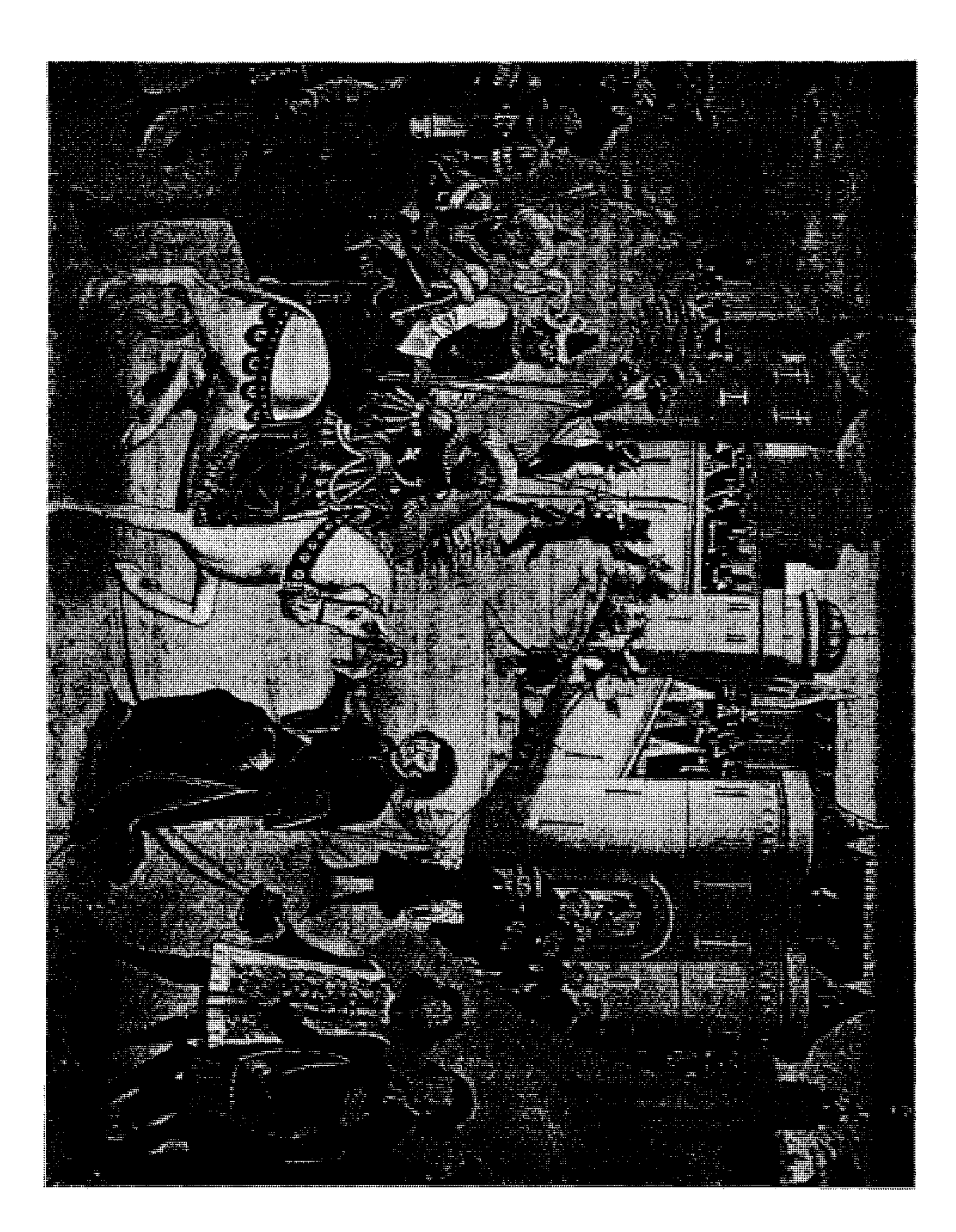
نانكرد، أمير أنطاكية بزيّ عربي



نقود صليبية بأحرف عربية



التبادل الثقافي بين الشرق والغرب



صلاح الدين يتسلّم مفاتيح القدس



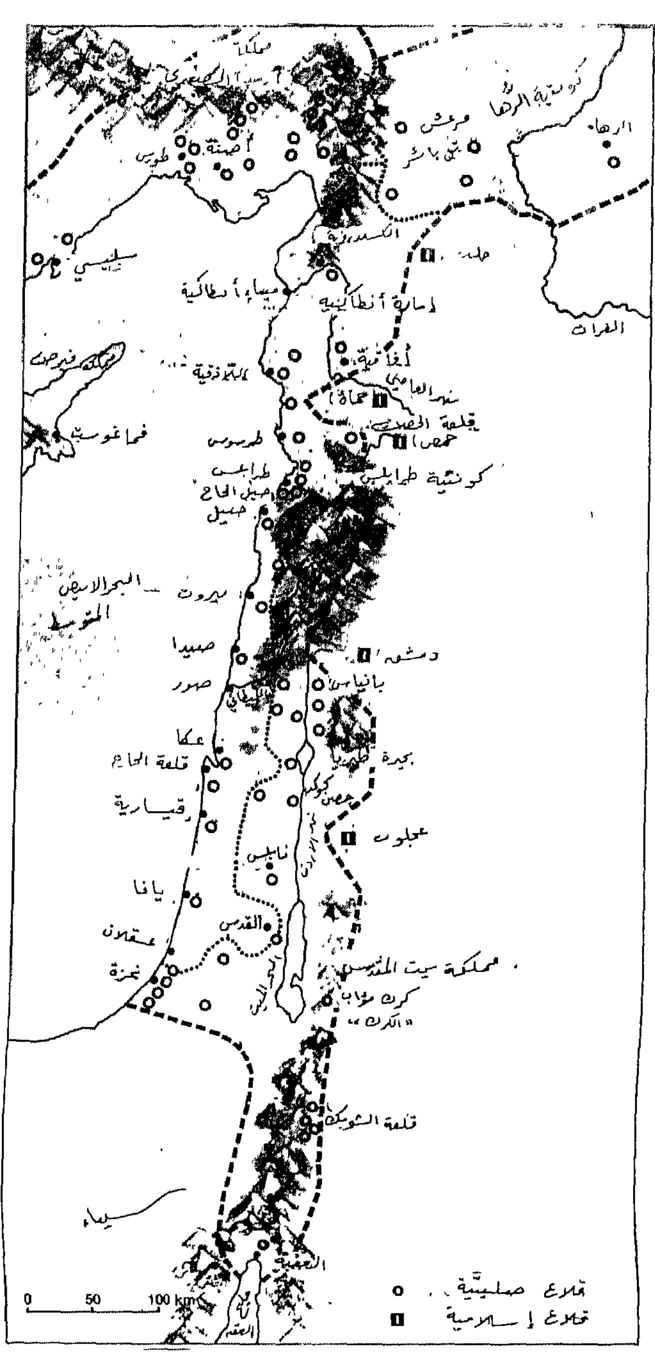
فرانسوا الأسيزي والكامل سلطان مصر



لويس التاسع مأسوراً في المنصورة



لويس التاسع يستقبل وفد الحشاشين



خارطة تمثل فترة الحروب الصليبية التي يتحدث عنها الكتاب

فهرس الموضوعات

* * *

المؤلف في سطور

- عبدالله بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن محمد بن ربيعة، والنسبة «الربيعي».
- ولد في «الحريزة» في «عنيزة» في منطقة «القصيم» عام ١٣٧٧/ ١٩٥٨م.
- أنهى دراسته المتوسطة والثانوية في المعهد العلمي بعنيزة عام ١٣٩٦.
- تخرّج من كلية العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الإمام، بالرياض عام ١٤٠٠.
- عين معيداً في الكلية، ودرس فيها السنة التمهيدية للماجستير في التاريخ الإسلامي. وحصل على تقدير «ممتاز».
- منح درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من الكلية ذاتها بتقدير «ممتاز»، وعين محاضراً.
- ابتعث إلى فرنسا في الفترة من ٢٦ مارس ١٩٨٥ إلى ٢ أكتوبر ١٩٨٩ حيث عاد بالدكتوراه من جامعة السوربون (باريس الرابعة)، بتقدير «مشرف»، في مجال «تاريخ أوروب العصور الوسطى» و «تاريخ وحضارة الصليبيين».
- هو الآن عضو هيئة التدريس في قسم التاريخ والحضارة، في الكلية نفسها، ويلقي محاضرات في تخصصه.
- له مساهمات في مؤتمرات داخلية وخارجية، ولديه بحوث لم... ودراسات حول أعمال فرنسية قديمة لم تنشر.
- له يوميات في جريدة «الجزيرة» السعودية.

* * *

